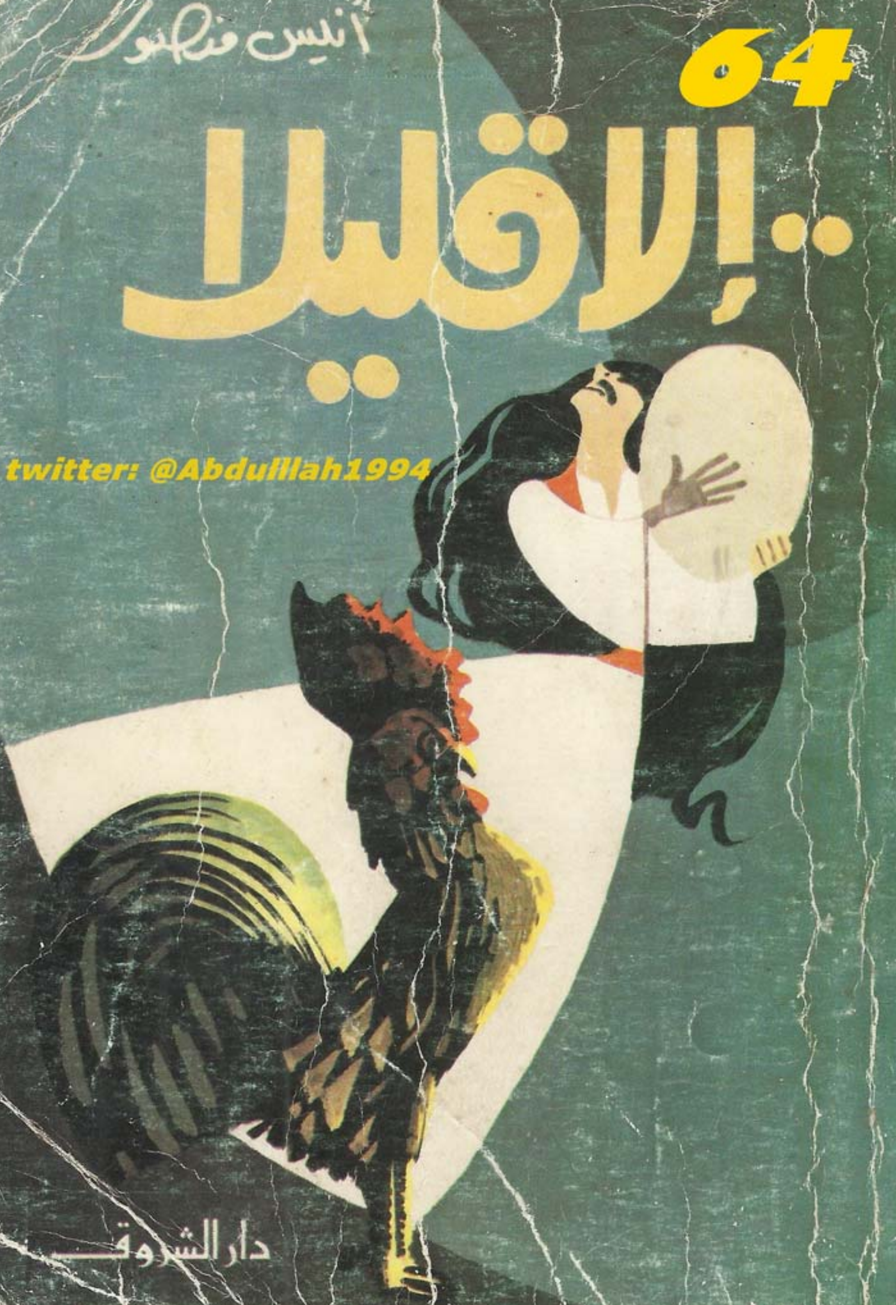


أنيس منصور
64
إلا قليلا..
twitter: @Abdulllah1994
دار الشروق

أنيس منصور

.. إلا قليلا !

دار الشروق

.. إلا قليلا !

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

أنت ناقص..

وأفكارك أيضا !

كل يوم، صيفا وشتاء، أصحو عند الخامسة صباحا. أغسل يدى. لابد أن أغسل يدى. وأبلل عينى بالماء. واتجه إلى مكتبى.. وأزيل كل الكتب من فوق المكتب.. وكل قلم وكل ورقة وكل ما أجده يعترض عينـى إذا نظرت أمامى.. وأطفئ نور السقف حتى إذا نظرت فلا شىء من الكتب التى على الجدران تجذب عينى.. فأنا لا أريد أن أنظر إلـى شـىء.. لا أريد أن أركز على أى شىء..

أما الورق فلابد أن يكون أبيض بلا سطور.. طويلا ناعما.. أما القلم فأمامى عشرات الأقلام.. لابد أن يكون حبرها أسود قاتما.. ناعمة تنزلق على الورق بسهولة.. وألا تكون أسنانها مدببة وألا تكون غليظة.. فـإن كانت ناعمة جدا، سبقتنى على الورق.. وإن كانت خشـنة أو جـافة أو محددة فإنها تعرقل كتابتى.. وأنا أكتب بسرعة التفكير بالضبط. ولـذلك فالحروف كبيرة. وخطى ليس واضحا. وأكثر الكلمات بغير نقـط.. فـأنا أكاد لا أرى ما الذى أكتبه.. فلم أرث عن والدى جمال الخط.. فقد كان خطه فارسيا جميلا أنيقا..

كثيرون من الكتاب يفعلون ذلك..

فالشاعر العظيم شكسبير يكتب بسرعة هائلة. ويقال إنه لا يشطب كلمة واحدة. وكان يختار ورقا صغيرا.

ومن يقرأ ما كتبه الأديب الفرنسى هيجو يجد أن الصفحات التى يكتبها ليست إلا معركة بين الذى كتبه وبين الذى أعاد كتابته وبين الذى شطبه وبين الذى وضعه بين السطور..

قليلون جدا من الأدباء لهم خط جميل. وفى مقدمتهم جميعا كاتب أمريكا إدجار الن بو.. ويقال إنه فاز فى أول حياته الأدبية بجائزة كبيرة لجمال خطه..

والأديب الفرنسى الكسندر ديماس الصغير، اشتغل سكرتيرا لأحد المحامين. لجمال خطه..

والكاتب الانجليزى كارليل كان يكتب على ورق ملون..

وأمير الشعراء أحمد شوقي كان يسجل ما يخطر على باله هو على علب السجائر والكبريت..

ولم يعرف الأدب رجلا أصر على أن يكتب باللون الأسود مثل الشاعر رديارد كبلنج. حتى أنه فى احدى المرات أراد أن يسجل احدى قصائده، فلما لم يجد قلما أمسك عودا من القش وراح يغمسه فى فنجان القهوة ليكتب على قطعة من القماش!

ولابد أن أعد لنفسى كوبا من الشاى.. وأرى أن إعداد الشاى هو نوع من الانشغال المؤقت.. أو هو نوع من «تسخين» الذهن قبل أن يعمل.. ولا أحب أن يكون الشاى بلا سكر.. ولا أحب أن يكون سكره واضحا.. فالمرارة الشديدة كالحلاوة الشديدة، تفسد شيئا ما فى فمى أو فى رأسى.. أو تشتت طعما ما أحرص على أن يكون لفمى ولشفتى..

أو لعل التفكير يكون أيسر إذا توافرت شروط عديدة اعتدت عليها: الضوء والطعم ونعومة الورق وانسياب القلم والهدوء التام والفراغ الذى حولى وأمامى.. وأجلس بالبيجاما حافى القدمين..

وكان الأديب الأمريكى همنجواى يكتب واقفا فقد أصيب بكسر فى ظهره على أثر حادث طيارة..

وكان الشاعر الألمانى جيته يكتب واقفا، فلديه التهاب مزمن فى مصرانه الغليظ..

بينما أدباء آخرون «افقيون» يكتبون نائمين على بطونهم.. مثل أديب بريطانيا استفنسون والشاعر والتر سكوت.

وكان الفيلسوف الأمريكى بنيامين فرانكلين يكتب وهو فى البانيو ـ وهو أول من أدخل البانيو إلى أمريكا..

وكان السياسى البريطانى دزرائيلى يكتب وقد ارتدى ملابسه كاملة.

وأديب فرنسا جوستاف فلوبير كان يضئ البيت والحديقة. حتى يخيل للناس أنه أقام وليمة. فيقف الناس أمام الباب ليروا السادة الكبار الذين دعاهم.. ثم لا يجدون أحدا!

وربما كان أديب فرنسا بلزاك هو أكثر الأدباء إسرافا فى شرب القهوة. يشرب فى الليلة مائة فنجان..

وكان الشاعر الألمانى شيلر يشرب القهوة بالشمبانيا..

وكان الفيلسوف الانجليزى هوبز يكتفى بشرب الماء البارد..

والفيلسوف الوجودى الفرنسى سارتر يكتب فى المقاهى.. فى أحد الأركان وأمامه زجاجة من النبيذ..

والأديب الأمريكى فولكنر لا يفيق من الخمر أثناء الكتابة..

وكان الأديب النرويجى ابسن يجلس للكتابة وقد وضع أمامه صورة للأديب سترندبرج، أبغض الشخصيات إليه. وكان يقول: أحب أن أراه مشنوقا على الحائط وأنا أكتب!

وكان كاتب الأطفال اندرسن إذا جلس ليكتب فإنه يملأ قميصه بالصحف. فقد كان نحيفا جدا. ويضيق بهذه النحافة. ولذلك كان حريصا على أن يبدو ممتلئا. فإذا تحقق له هذا الشعور فإنه يسرع إلى الكتابة. وكان إذا نام يخيل إلى من يقترب منه أنه ميت. ولذلك كان يكتب ورقة إلى جوار سريره عليها هذه العبارة: لست ميتا ولكن أبدو كذلك!

وقد عرفت الأديب أحمد حسن الزيات. فقد كان رجلا أنيقا. يرتدى ملابسه كاملة. ويكتب على ورق صغير. وكانت كلماته وحروفه والنقط فوق الحروف كلها واضحة. وكان خطه صغيرا جدا.

ورأيت د. عبد الرحمن بدوى يكتب على ورق متوسط. وخطه جميل. وحروفه واضحة كلها. والنقط. وكل علامات الترقيم. وحتى عندما ينشر المخطوطات القديمة، فإنه ينقلها بخطه هو، بدلا من أن يكلف أحدا يفعل له ذلك..

وأصر الأديب ألدوس هكسلى على أن يكتب دون أن يرى الذى يكتبه. فعل ذلك قبل أن يفقد عينيه. وكانت حجته أن الانسان قد اعتاد على الكتابة فهو يعرف بالضبط كيف يكتب فى أى وضع وتحت أى مصباح. •تماما كما يأكل ويشرب ويرتدى ملابسه فى الظلام.. وكان فى استطاعته أن يكتب ليلا. ولما فقد عينيه، كان يقرأ الكتب البارزة

الحروف بأن يلمسها بأصابعه.. ثم يجلس أمام مكتبه ويرفع رأسه إلى أعلى، ويضع يده على الورق ويكتب..

وهذا هو الفارق الوحيد بين الأديب والفنان. فكل ما يخطه الفنان على لوحاته هو الهدف.. هو المعنى.. أما الكاتب فكلماته ليست هى الهدف، وإنما الكلمات رمز إلى المعنى.. الكلمات ليست هى المقصودة.. فالكلمات التى أكتبها تقوم المطبعة بنقلها على نحو آخر.. أما الذى يرسمه الفنان أو يخطه أو يظلله فهو المقصود.. هو الابداع نفسه. فأمام اللوحات الفنية نقف نتفرج على ضربة الفرشاة.. على بداية الخطوط ونهايتها.. على البقع الملونة. بقع الظلال.. وعلى توزيع الدرجات.. فالخطوط فى اللوحة لا ترمز إلى معنى: وإنما هى المعنى.

على عكس الكلمات والعلامات الموسيقية فهى جميعا رموز إلى معنى آخر.. ولذلك لا يهتم الأديب كثيرا بشكل الكلمات أو حجمها..

والذى يقرأ ما كتبه الشاعر الرسام ميكلونجلو، أو المفكر الانجليزى كارليل.. أو الروائى الأسبانى سرفانتس، يخيل إليه أنهم مجموعة من الأطفال يقلدون آباءهم ولم ينجحوا. فهم جميعا يكتبون باليد اليسرى.. فيما عدا سرفانتس الذى كان يكتب بيده اليسرى ثم فقدها فى الحرب، فراح يكتب باليمنى التى لم يعتد عليها!

وليس أصعب على نفسي من أقرأ الذى كتبته. وليس أقسى من مراجعته وتعديله. فلا أكاد أمضى فيها بعض الوقت حتى أضيق بها.. أتمنى أن أغيرها أو أعيد كتابتها من أولها لآخرها.. ولذلك ففى كثير من كتبى أخطاء مطبعية.. إما لأننى لم أحسن قراءتها عند إعادة طبعها. وإما لأن الذين يقومون بمراجعتها قد أهملوا فى ذلك. أو تركوها على ما كانت عليه، ظنا منهم أنها رغبتى!

مرة واحدة فقط لم أطق صبرا. فعندما فاز كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» بجائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٢ اعيدت طبعته الأولى بعد شهور من ظهورها. وقبل أن أبعث بالكتاب مرة أخرى إلى المطبعة، قلبت فى الكتاب.. وشعرت بالغيظ والضيق والقرف. فلم يعجبنى. إن الكتاب فى حاجة إلى ترابط وإلى تماسك.. وقررت أن أكتبه من جديد. وجلست فى البيت أسبوعين. وأعدت هذا الكتاب فى ٧٠٠ صفحة. وقد ظهرت طبعته السابعة عشرة، دون أن أغير فى الكتاب سطرا واحدا. وقد كتب له د. طه حسين مقدمته. ثم كتب له الأستاذ محمود تيمور مقدمة أخرى. ولم أشأ أن أقلب فى الكتاب حتى لا أعيد كتابته مرة ثالثة!

وقد حدث أن بعث المفكر الانجليزى توماس كارليل بكتابه عن «تاريخ الثورة الفرنسية» إلى الفيلسوف جون ستيوارت ميل. فما كان من خادمة الفيلسوف إلا أن ألقت به فى المدفأة.

وجلس المفكر كارليل يعيد هذا الكتاب من الذاكرة.

والمترجم الانجليزى الكبير سير ريتشرد برتون الذى ترجم «ألف ليلة وليلة» فوجئ بأن زوجته قد ألقت بنصف هذا الكتاب فى النار..

وجلس يملى عليها الترجمة فى أسبوع واحد..

وليس من الضرورى إذا جلست إلى الكتابة أن أجد بسهولة ما أكتبه. وعندما تتعذر الكتابة فإننى أفضل أن أقرأ فى أى موضوع.. وتمضى الساعات أستمتع بما أقرأ.. أو تمضى الساعات لا أعرف بالضبط ما الذى اقرؤه.. وفجأة أجدنى أكتب موضوعا آخر غير الذى كان فى نيتى أن أكتبه..

وقد أجلس لكى أكتب عددا من المقالات القصيرة، فأجدنى قد كتبت

قصة. لا علاقة لها بكل ما كان يدور فى رأسى. وإنما تكون فكرة هذه القصة قد راودتنى عن نفسى منذ وقت طويل، وام استسلم لها. ثم إذا بى أجدنى فجأة مستعدا لكتابتها كاملة..

وكما أننى لا أطيق أن أرى شيئا أمامى وأنا أكتب.. فإننى أيضا لا استطيع أن أستمع إلى الموسيقى.. فهى تبعثر اهتمامى وتسحبنى كموج البحر بعيدا عن الشاطئ..

وإذا كان لابد من الموسيقى، فليكن ذلك عندما أجلس للتفكير. ولا أحب فى هذه الحالة أن تكون أغنيات. لأن الأغانى كلمات وخطابات.. وهذه الخطابات تقوم بتشريدى وجعلى طرفا فى قصة حب وكراهية.. وأنا لا أريد أن انشغل بغيرى.. ولذلك فالموسيقى أفضل.. إنها تطلق حريتى.. إنها أجنحة.. إنها بالونات مملوءة بالأوكسجين ترفعنى بعيدا دون هدف..

وأعتقد أن التفكير «كيمياء».. أى عمليات كيميائية.. إضافة عناصر إلى أحماض إلى سوائل.. وهزها معا ليكون منها سائل جديد.. أو مادة جديدة.. ولكى تنجح هذه العملية الكيميائية لابد أن تتحقق شروط التفاعل.. وفقا لمعادلة دقيقة.. هذه المعادلة لا أعرفها بالضبط.. ولكن بالتجربة اليومية.. فإننى أحسها. وأحاول أن أكون دقيقا.. فاليقظة فى ساعة معينة.. وتناول الشاى.. أو صنعه.. ووضعه أمامى دون أن أنتبه إليه.. ونوع الورق والحبر والاضاءة ودرجة حرارة الغرفة..

إننى أقوم بعمليات تكييف للهواء والماء والضوء والمزاج والتسخين.. وأنتظر.. وأنتظر طويلا..

وقد أكون هادئا.. وقد أكون غاضبا.. ولكنى دائما احنى رأسى للذى يجئ ويتوارد..

ولا يزال المثل الأعلى لكل مفكر ما قاله استاذنا العظيم فيلسوف الوجودية الألمانية مارتن هيدجر: إننى أجلس خاشعا حانى الرأس أمام سيدتى.. وأنتظر ما تجود به على.. وقد تفضلت معبودتى فقالت.. والذى قالته ليس كثيرا.. ولكنى أكن لها عظيم الاحترام والامتنان..

أما معبودته ومعبودتى فهى «الحقيقة»..

ولا أعرف من أين تجئ الأفكار.. ولكنها تجئ.. ولا كيف يحدث أن أكتب فى جلسة واحدة ألف سطر، وفى أيام لا أكتب سطرا..

وإذا وجدتنى عاجزا عن الكتابة، فإننى لا أعصر رأسى..

وقديما سألوا الشاعر العاشق كثير: ماذا تصنع عندما يعز عليك قول الشعر؟

أجاب بأنه يطوف الحدائق ويدور حول البيوت.. وهنا «يسهل على أرصنه ويسرع إلى أحسنه»..

والشاعر الساخر الفرزدق قال: ربما أتت ساعة يكون فيها نزع الضرس أسهل من قول بيت واحد من الشعر!

وكان الشاعر العظيم المتنبى يقول إنه إذا تعذر عليه قول الشعر، ترك فراشه وركب حصانه.. ساعة وساعتين. فإذا عاد إلى بيته تدفق عليه الشعر!

أما الشاعر الألمانى رلكه فيصف حالة نزول الشعر، أو فيضان الخاطر.. بأن الشعر يشبه السحب التى تحمل قطرات الماء التى تبخرت من بلاد بعيدة.. فقامت الرياح ونقلتها إلى بلاد أخرى.. ثم جاءت الشمس فأسقطتها مطرا.. فلا أحد يعرف من أين تواتيه هذه المعانى..

ومن الممكن أن يعرف المفكر من أين جاءت هذه المعانى. ولكن هذه هى المرحلة الثانية. أما المرحلة الأولى فهى أن يسجل ما يجئ. وبعد ذلك يسأل من أين جاء ولماذا جاء؟

مثلا: صدر لى كتاب بعنوان «يسقط الحائط الرابع» ثم كتاب آخر بعنوان «الحائط والدموع» وكتاب ثالث بعنوان «كرسى على الشمال»..

وفسرت ذلك بأن الحائط الرابع فى لغة المسرح هو الحائط الوهمى الذى يفصل بين الممثلين والمتفرجين.. فالممثلون يتحركون على المسرح فى «حياتهم الخاصة» وكأن أحدا من الناس لا يتفرج عليهم.. أى كأن المتفرجين يتلصصون عليهم.. وليس مفروضا أن يشعر الممثلون بذلك.. وليس من الضرورى أن يجعلهم المتفرجون يشعرون بذلك.. إذن فهذا الحائط وهمى.. أو هذا الحائط هو أكذوبة اتفق عليها المؤلف والممثل والمخرج والمشاهد.. هذه الأكذوبة قد ارتضيناها جميعا..

ولكن «مسرح العبث» الذى ساد باريس فى الستينات قد أسقط هذا الحائط الوهمى.. وجعل الممثلين يجلسون فى الصفوف الأولى من المسرح.. أى أن المسرح الحديث جعل المتفرج موجودا فى عينى وأذنى وخيال الممثل والمؤلف والمخرج.. فلم يعد هناك حائط وهمى.. ولذلك كثيرا ما دار الحوار بين الممثلين والمتفرجين.. بل إن الأديب الفرنسى جان جينيه عندما قدم مسرحية «السود» جعل جميع الممثلين يرتدون أقنعة سوداء.. واشترط أن يكون فى الصف الأول من مقاعد المتفرجين رجل أسود يرتدى قناعا أبيض. لماذا؟ لأنه أراد أن تكون المسرحية محاكمة للرجل الأبيض.. ولذلك يجب أن يكون هناك رجل واحد أبيض على الأقل من المتفرجين.. فإذا تعذر ذلك فليكن هناك رجل أسود يضع قناعا أبيض..

وفى مسرحية «الكراسى» للأديب الفرنسى الرومانى الأصل يوجين يونسكو نقل قاعة المسرح إلى خشبة المسرح.. فامتلأ المسرح بالمقاعد الخالية.. لأنه توقع فشل هذه المسرحية.. وتوقع ألا يتفرج عليها أحد.. ولذلك جعل المسرح مليئا بالمقاعد الخالية من المتفرجين.. فكأنه شاء أن تكون خشبة المسرح صورة أو مرآة لقاعة المسرح..

إذن فلقد أسقط المسرح الحديث الحائط الرابع..

وأذكر أن د. عبد الرحمن بدوى كتب مقالا عن كتابى «وداعا أيها الملل» وعن الدراسات التى كتبتها عن «مسرح العبث» وقال عبارة مشهورة: لو لم يدرس الفلسفة الوجودية ما استطاع أن يكتب بهذا الوضوح والاقناع.

وكان يتوجه بهذه العبارة إلى د. لويس عوض الذى رأى هو أيضا فى دراساتى عن سقوط الحائط الرابع شيئا جديدا فى النقد وعلم الجمال..

وعندما أصدرت كتابى «الحائط والدموع» عن اليهود وإسرائيل والصهيونية والصراع العربى. كنت أقصد بالحائط حائط المبكى.. وبالدموع دموع اليهود عند هذا الحائط.. ورأيت أن اليهود كان لهم حائط واستردوه.. أو اغتصبوه. أما العرب فلهم فى كل بيت حائط للدموع.. فهم يبكون الهزيمة والعار الذى أصاب الأمة العربية، والهوان الذى طحن الضمير العربى بعد نكسة سنة ١٩٦٧..

وعندما أصدرت كتابى «كرسى على الشمال» فسرت اختيار هذا العنوان بأننى كنت أذهب إلى دار الأوبرا وأجلس دائما على اليسار.. وأننى أحب الجلوس إلى اليسار فى أى مكان.. مع أننى لست يساريا. أو أننى معتدل فى هذا اليسار. فالجلوس إلى اليسار ليس تجسيدا عمليا لفكر سياسى.. وإنما التفسير الوحيد الذى اهتديت إليه فى ذلك الوقت..

هو أننى اعتدت على أن يكون مقعدى هـكذا. ولا أعـرف كيف بـدأ. واهتديت إلى معنى آخر هو أن عينى اليمنى أضعف من اليسرى. ولذلك فأنا انظر إلى اليمين عادة. وهذا يجعل المسافة الضوئية أمام العيـن اليمنى أقصر من المسافة أمام العين اليسرى.. ولو نظرت إلى شيء إلى يسارى لكان ذلك مرهقا للعين اليمنى ومريحا لليسرى. ولما كانت اليمنى هى التى لا تستطيع أن تجـارى اليسرى. فقـد كان التـوازن البصرى يخفف العبء على اليمنى. فأجلس إلى اليسار وانظر..

ووجدت ذلك مقنعا. أو أننى اخترت هذه العناوين لمعنـى وجـدته قريبا. ولكن عندما عاودت التفكير فى اختيار كلمة «الحائط» اهتديت إلى المعنى الحقيقى. فقد كنت أسكن فى مدينة إمبابة وأنا طالب فى الجامعة. عضو فى جماعة الاخوان المسلمين قريبا من مسجد سـيدى إسـماعيل الامبابى، مشغولا بفتاة لها عينيان جميلتان لا تقرأ ولا تـكتب. وكنـت أقول: يارب ما الذى تفعله هذه البائعة بعينيها.. إن أصغر شيء تراه فى حجم البطيخة.. وأنا أكبر شيء أراه بعينى فى حجم النملة! يارب إنهـا حكمتك التى غابت عن حكمتى!

وكان يسكن الغرفة التى فوقى ساع فى مؤسسة أخبار اليوم. وقـرر صاحب البيت أن يبنى طابقا ثالثا. فكان لابد من هدم الحائط المـطل على الشارع. وهدم الحائط. الرابع لغرفة نومى. وكنت لا اسـتطيع أن أدخل هذه الغرفة إلا ليلا.. ولا أدخلها من الباب فلا حاجة إلى الباب. وكنت أجد الكلاب والقطط والفئران قد سبقتنى بمخلفاتها إلى غـرفتى. وفى الليل أحاول تنظيف الغرفة. ويغلبنى التعب فـأضع المـرتبة علـى الأرض. وأضع فوق رأسى بعض الكتب حتى لا يتساقط التـراب علـى وجهى. وأحيانا أضع بعض ملابسى.. ويكون لسـقوط التـراب صـوت

يوقظني. أما سقوط التراب فسببه أن الساعى قد عاد من الخمارة. وأسمع الحوار العنيف بينه وبين زوجته الذى قد يتطور إلى استخدام الأحذية والسكاكين.. وكنت أهلوس أثناء النوم فأتخيل نفسى حصانا ينام واقفا. أو أتصور نفسى وطواطا يظل يدور فى الغرفة. ويقال إن الوطواط يستطيع أن ينام وهو يدور.. وتمنيت لو كان كل الناس وطاويط يمسكون بعضهم ببعض على شكل حبل طويل يمتد من جدران هذا البيت إلى جدران البيت المقابل.. وكان الهنود يتخيلون أن الآلهة كانوا يقطعون المسافة بين الهند وجزيرة سيلان على ظهر ملايين الوطاويط التى تماسكت بين البلدين..

وعلى الرغم من أن هذا الساعى قد أصبح يجلس أمام مكتبى فى أخبار اليوم بعد ذلك. غير أن انتقاله بين الجلوس فوق رأسى. إلى الجلوس أمام بابى لم يكن اعتذارا كافيا لما أصابنى. فبقى هذا الحائط الرابع الذى سقط فتعذبت وتعذبت عميقا فى داخلى.. ولذلك جاء عنوان الكتاب وكأنه هتاف بسقوط الحائط الرابع. كأننى الذى هتفت بسقوطه. واستجاب الله.!

ويوم نجحت فى ليسانس الفلسفة وكان ترتيبى الأول مع مرتبة الشرف الأولى، لم أكن سعيدا حقا. فقد مات والدى بعد أن سمع هذا النبأ. وظن بعض زملائى أننى أفتعل الحزن. كأن هذا النجاح ليس كافيا. أو كأننى توقعت ما هو أكثر من ذلك ـ فليس أكثر من ذلك.

وقال لى زميل: طبيعى أن تكون هذه هى نتيجة المذاكرة على ضوء مصابيح الشوارع!

وبكيت. وخجلت من دموعى. فقد أوجعنى المعنى الذى قصده. وعلى الرغم من أننى زرته فى السجن. وكانت زيارتى سببا فى أن صديقى مدير

السجن قد عجل بالتحقيق معه، وإخراجه فلم أر فيما أصابه ترضية كافية أو اعتذارا نهائيا. وإنما بقيت الدموع والحائط فى أعماقى!

أما لماذا اخترت «كرسى على الشمال» عنوانا لكتاب عن المسرح الحديث والنقد المسرحى، فلسبب آخر غير الذى ذكرت. فقد كنت تلميذا فى مدرسة أبى حمص الابتدائية. وكنت أتسلى بالوقوف إلى جوار عسكرى المرور. اتفرج على السيارات التى تتجه إلى الاسكندرية. المدينة التى سمعت عنها ولم أرها. وكان عسكرى المرور يترك لى مهمة تسجيل أرقام السيارات هكذا: ١٩٢٤ ملاكى بحيرة الساعة ١٢ و ١١ دقيقة.. وكنت سعيدا بذلك. ومصدر سعادتى أن أتفرج. وأتابع وأسجل. وأن الرجل يثق بى. وأنه أصبح من حقى أن أقف إلى جوار كشك البوليس!. ولم يكن كل رجال المرور يوافقون على أن أسجل السيارات بدلا منهم. وإنما واحد منهم فقط. اكتشفت أنه يعرف والدى. ولسبب لا أعرفه نزل واحد من سيارة فورد موديل سنة ١٩٣٣ ـ فقد كنت أعرف موديلات السيارات أيضا ـ وأمسكنى من ملابسى. وقال: أمامى على القسم!

وذهبت إلى القسم. والآن أصف لك نفسى. كنت ألبس جلبابا مخططا وطاقية من نفس اللون. كالتى نراها فى مسلسلات التليفزيون، وفى قدمى قبقاب خشبى. إذا مشيت على الكوبرى فإننى أحدث طرقعة ذهابا وإيابا. وكنت أتابع هذه الطرقعة وأحرص عليها.. وكان جلبابى مشقوقا من الجانبين. وهذا الشق نسميه «فراجيه» أى فرجة صغيرة ـ أى فتحة صغيرة. وظل الرجل ممسكا بملابسى. ودخلنا القسم. ولم يكد الضابط يرانى حتى قال: أنت؟ كيف؟ ماذا حدث؟

قال صاحب السيارة: إنه لص.. فى عصابة خطفت محفظة زوجتى..

ولم أتبين وجه الضابط. فقد كنت فى دوامة من المشاعر التى لا أعرف كيف أصفها.

المفاجأة كانت مخيفة مذهلة لى ولغيرى فى القسم.

ثم طلب الضابط إخراجى من الغرفة. وسحبنى العسكرى بشدة وغلظة. وتركنى أمام الباب محذرا أن أتحرك. ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا. ويبدو أن الضابط قد طلب من العسكرى أن يجلسنى على أى مقعد. فأتى لى بمقعد وقال لى: اجلس على هذا بعيدا هناك.. ولا تتحرك.. إلى أن نرى نهاية هذا اليوم الأسود.. أنت ابن الرجل الطيب تخطف المحفظة؟!

ولم أنتبه إلى أن جلوسى جاء أمام دورة مياه. ولا أدعى أننى شممت شيئا أو رأيت أحدا. إننى مسلوب مذهوب العقل.. إننى فى غيبوبة.. دايخ فى دوامة.. جالس فوق أو تحت الكرسى أو واقف.. لست على يقين من شىء.. ولا أعرف كم مضى من الوقت حتي استدعانى الضابط. وسألنى:

هو يقول إنك تعرف الولد الذى خطف المحفظة؟

قلت: نعم أعرفه..

سألنى: من هو؟

قلت: زميلى فى المدرسة.

قال: ما اسمه؟

وقفز صاحب السيارة يقول: إننى لم أكذب. إننى رأيتهما يتحدثان معا.. ومن يدرى لعلهما سوف يقتسمان المبلغ الذى سرقاه.. خمسة جنيهات ونصف!

قال الضابط: ولكنك يا سيدى لا تعرف من هو. ولا من هو أبوه. ولو كان لصا لهرب.. ولكنه ليس كذلك!

وطلب منى أن أخرج..

وخرجت. وبعد خمس أو ست ساعات خرج الضابط ليجدنى مازلت جالسا فى مكانى. فصرخ: أنت ما تزال هنا؟ يا عسكرى.. ألم أقل لك دعه يذهب إلى بيته.. إنه برىء.. ليس لصا!

وقال العسكرى: لم تقل شيئا من ذلك يا أفندم!

قال الضابط: اخرس يا كلب يابن الـ...

ثم استدعانى إلى مكتبه. وقدم لى شايا. وأقسم أن أتناول السندوتشات معه.. وألا أذكر لوالدى شيئا من ذلك..

وعلى الرغم من أن العسكرى هو الذى قدم لى الشاى واشترى لى السندوتش.. ورأيته عندما خرجت من غرفة الضابط يأكل ما تبقى منى، فلم أجد فى ذلك تعويضا عن هذا العذاب والهوان..

ومن هنا جاء عنوان كتابى «كرسى على الشمال»..

وربما اهتديت إلى مدلولات أخرى بعد ذلك. ولكن ساعتها لم أفكر إلا فى الذى يخطر على البال، ويكون مقنعا لى عند الكتابة..

وعندما عاودت التفكير فى الحائط الذى سقط فى إمبابة.. أعادتنى ذاكرتى إلى حائط آخر فى المنصورة. فقد كنت أسكن فى بيت رقم ٩ شارع كوهين. وكانت غرفتى فى الطابق الأرضى مطلة على الشارع. وكان الحائط وراء ظهرى يتساقط منه الماء.. الرطوبة.. وكانت هذه الرطوبة تسحب معها الطلاء الجيرى.. ولذلك كنت أبعد الكتب والمجلات عن

الحائط حتى لا يزعجنى ويفزعنى سقوط الجير.. ثم كنت «ألف» حصيرة حولى وحول المكتب لتحمينى من شدة الرطوبة.. ثم اهتديت إلى صنع غطاء.. أو سقف من الورق المشدود بعضه إلى بعض والذى يتدلى من السقف بخيط حتى لا يسقط الجير فوق رأسى.. وعند عودتى من المدرسة فإننى أكنس الجير الذى تراكم فى أرض الغرفة وفوق المكتب.. ثم ألف الحصيرة حولى والسقف الورقى فوقى. وأجلس قريبا من المصباح الغازى. وكثيرا ما نهضت من نومى وقد احترق رمش عينى وشعر رأسى بسبب اقترابى الشديد من المصباح الذى يضئ ويدفئ فى نفس الوقت..

إذن فلقد عانيت سنوات طويلة من سقوط الحائط..لا حائط واحدا يسقط كل ليلة، ولكن كل الحوائط والسقوف أيضا!

وعندما قبلت أن تتبنانى إحدى السيدات التى تسكن فوقنا فى هذا البيت. لم يكن هناك إلا سبب واحد هو أن أهرب من رطوبة الحوائط الباردة المتساقطة.. ولكنى ما لبثت أن هربت من فوق إلى تحت.. ووجدت بقائى فوق هو انحطاط لى، وأن صبرى على الذى هو تحت سمو بنفسى وارتفاع بها عن الهوان!

وعندما أصدرت كتابى «نحن أولاد الغجر». كان هذا عنوان المقال الأخير من هذا الكتاب. والمقال مشروع كتاب عن أعماقى. فمنذ وقت طويل وأنا حائر بين اختيارات كثيرة. وبين وجهات عديدة. وبين ألوان ولغات وديانات وعناصر. ولم أفهم معنى أن تكون أمى من أصل فرنسى مغربى وأن يكون أبى من أصل سعودى.. أو أن يكون من سلالة شمس الدين الشربينى، شيخ شربين، وأن تكون أمى من سلالة «الشيخ الباز».. وأن يختلط أجدادى بدماء ومذاهب مختلفة. ولم أفهم كثيرا سر العيون

الزرقاء والشعور الذهبية والبشرة الشقراء فى أسرة أمى.. ولا أن يكون لها أقارب من فرنسا ومن المغرب ومن المكسيك وفلسطين.. سمعت كل ذلك. ولكن لم ألتق بواحد من هؤلاء.. ولم أعرف لماذا قررت الهرب فى أحد الأيام وأنا طفل. وكان الجو باردا. والسماء غزيرة الأمطار. وقد حذرتنى جدتى الطويلة القوام الشقراء الزرقاء الجليدية العينين أن أخرج وحدى ليلا.. وإلا أكلنى الذئب. ولكنى فضلت الذئب على عصا جدتى ـ وكانت تضربنى كثيرا. ويقال لأننى كنت أضرب الأطفال. ويقال لأننى كنت أكره كراهيتها لوالدى.. ويقال لأننى لا أحب ضعف أمى أمامها.. ويقال إن كثيرين ينفرون من قسوتها وتسلطها على كل أبنائها..

وفى الليل عرفت طريقى عبر حظيرة الأبقار والجواميس، وعبر القناة الصغيرة واختراقا لحقول الذرة، ووصولا إلى ضريح أحد أجدادى.. ويقال انِ هناك عفاريت ويقال أرواحا.. ثم اتجهت إلى السكة الحديد.. وعبرتها.. وواجهت نباح الكلاب. ولكنى مضيت. والتفت الكلاب حولى. ثم ما لبثت أن راحت تلعق قدمى ويدى. لقد عرفت رائحتى منذ وقت طويل، وهناك قابلتنى أم «موشيه».. أى أم موسى.. إنها سيدة الغجر فى هذه المنطقة. ومن العجيب أن يكون لابنها اسم عبرى. فلا أعرف إن كانت يهودية. لم أتحقق من ذلك. ولم تكن قادرة على نطق اسمى نطقا صحيحا. فقد كان اسمى فى ذلك الوقت «صلاح». أى غير الاسم المسجل فى شهادة الميلاد. وكانت تقول لى: أهلا يا شالوح يا ابنى.. ما الذى أتى بك؟

فلما لم تجدنى راغبا فى الكلام، أدخلتنى الخيمة. وجففت ملابسى. وطلبت منى أن أخلعها. ثم أعطتنى ملابس أخرى. وأشارت أن أنام إلى جوار ابنها صديقى «موشيه».. الذى كان سببا فى أن ضربتنى جدتى

حتى كدت أموت بين يديها.. فقد ضبطتنى أنقل إليه وإلى أسرته بعض ما فى البيت من طعام وأحيانا من ملابس وأدوات للطهى والطعام.. ثم إننى ركبت حمار جدى.. وطلبت إليهم أن يأخذوه وأن يهربوا به.. ولكنهم خافوا فأعادوه واعترفوا بكل الذى قلته لهم!

وصحوت من النوم فلم أجد أحدا. لا الرجال ولا النساء ولا الأطفال ولا صديقى.. وجدت نفسى وحدى.. مع الدجاج والكلاب وفى ملابس أخرى غير ملابسى.. وتولانى الخوف. ولما فكرت فى أن أعود خفت أن أذهب فى هذه الملابس المزركشة.. إنها ملابس واسعة.. نظيفة ولكنها قديمة.. ثم وجدت طرطورا فوق رأسى.. ووجدت إلى جوارى طعاما قد تغطى بفوطة: رغيف وبيضتان مسلوقتان وبعض الأرز والبلح.. ثم لا أحد!

ولم يكن لطفل مثلى فى السادسة من عمره أن يفهم ما هذا الذى حوله.. ومن هؤلاء.. ولماذا هم هنا.. ولماذا أنا أيضا. وجلست تحت الخيمة أرقب من بعيد كل الفلاحين وأولادهم.. أعرفهم.. بعضهم أقاربى.. وأسمع ما يقولون.. وتصورت أنهم سوف يتحدثون عن اختفائى.. أو توهمت أن أحدا يعرف مكانى، وأنه لابد أن أمى سوف تبعث بمن يبحث عنى.. وفى نفس الوقت كنت حزينا. فأنا لا أريد أن أغضب أمى. ولا أريد أن تتطاول عليها جدتى.. وأخشى ما أعرفه.. فأمى سوف تضربنى كثيرا. إننى أجد لها ألف عذر. ولكن لو كانت جدتى تقلل من هذا الضرب أو هذا الغضب الذى يجعلها ترقد من الألم.. ويجعلها تنزف دما من أنفها وفمها.. ثم تنهال غضبا على والدى الذى يسافر بعيدا ولا يعرف أحد متى يعود.. أمى فقط هى التى تريده أن يعود.. أما أنا فلا أريد ذلك.. فإننى لا أحب أن يرفع أحد صوته فى

وجه أبى. وكانت جدتى وبعض خالاتى يفعلن ذلك!

ونمت. ولا أعرف كم يوما نمت. وكل الذى أذكره أن الخيمة قد امتلأت بكل شىء.. بالناس والأطفال والطيور والحيوانات.. وإننى غارق فى الماء.. وأن الماء يصل إلى عنقى.. ثم ينحسر إلى بطنى.. باردا عند قدمى.. ثم يعود الماء فينزل من عينى وأذنى.. وأحيانا أراه يهبط من عينى أم موشيه.. ومن والده.. ووالدتى.. وحتى جدتى هى الأخرى..

لقد أصبت بالحمى. ولا أعرف ماذا جرى لى. وفى ليلة من الليالى اضاءت الدنيا فجأة واشتعلت النيران. وامتلأت أذناى بالصفير.. لقد أمسكت أم موشيه عودا من الحديد الساخن، وادخلته تحت شعرى.. وكوتنى بالنار علاجا من الحمى. ولا يزال أثر الكى بالنار على الجانب الأيسر من رأسى..

وعرفت فيما بعد أنها ذهبت إلى والدتى وأخبرتها أننى موجود عندها. وأننى ألعب مع أولادها. فلا خوف. ولا قلق. ولا أعرف ما الذى قالته والدتى..

فقط اكتفت بحبسى فى إحدى الغرف ليلا ونهارا.. يومين.. ثلاثة.. خمسة.. لا أذكر. ولكنى لم اتحقق من ذلك.. فكنت قد اعتدت على أن أهرب إلى ما تحت السرير وأنا ما أزال طفلا صغيرا. وامكث يوما دون أن أتحرك. أو أجوع أو أعطش.. ثم إن هذا «الحبس» ليس غريبا عنى.. فأكاد أكون هكذا دائما. فى حالة عزلة. إنطواء.. إنفراد.. إنزواء.. مع الناس ولست معهم.. بينهم ولست على صلة بهم..

ووجدت فى حياة الغجر النموذج الرفيع الذى يناسبنى تماما. إنهم وحدهم هناك. يتحركون بعيدا عن الناس. الناس هم الذين نبذوهم،

ولكنهم لم ينبذوا الناس ولا أنفسهم. يتفرجون على الناس. يتــربصون بالناس. جاءوا من المجهول، وسوف يذهبون إلى المجهول. لا أحد منهم عبء على أحد.. فلا هو أخوه ولا أبوه ولا صديقه ولا جاره.. ولا حبيبه ولا عدوه.. فليس هناك ما يربطهم بالناس، فكل رابطة رباط، وكل علاقة قيد.. وكل صلة سلسلة..

ولما فكرت وأنا صغير أن أكون شيخا أزهريا، مثل عمــى. لــم أكن أعرف معنى ذلك. وإنما اختلط فى خيالى شيوخ ورهبان الكنيسة.. فقــد تصورت أن فى الامكان أن تكون لى صومعة وأن أظل شيخا..

وعندما هربت مرة أخرى إلى خيام الغجر.. وطلبت من أم موشيه أن أتزوج ابنتها وكان اسمها : شطارة.. لعلها.. استير.. لا أدرى. وكانت فى الرابعة من عمرها. لم تضحك السيدة. وإنما وضعت يدها على خــدى ونظرت فى عينى لترى إن كنت مريضا. ولكى أؤكد لها جديتى أخــرجت من جيبى بعض الفلوس فسألتنى : من أين؟ قلت : وجدتها على سريــر جدتى!

وضمتنى السيدة إلى صدرها. ووضعت الفلوس فى جيبها.

وكانت للغجر لغة لا أعرفها حتى الآن.. وكل ما أذكره أنها قريبة من لغتنا العربية.. ويبدو أنها بغير حروف.. فهى مجرد أصــوات.. عيــن.. حاء.. فاء.. هاء.. لم اتحقق من ذلك فيما بعد. وكنت قد ســمعت مــن موشيه أن الغجر يشربون من دم بعضهم البعض.. فهو قد شرب من دم أمه.. وأمه كذلك.. وأبوه.. لكى يشعر الجميع أنهم من دم واحد.. وأنهم واحد.. وقدمت لها ذراعى وطلبت إليها أن تشرب من دمى.. وأن أشرب من دم شطارة.. وأننى لن أعود إلى أمى.. فقد قررت أن أهرب..

وأتت السيدة بسكين ومرت بسرعة على ذراعى.. فسال الدم.. ولعقته

بلسانها وكذلك ابنها وابنتها.. ثم جرحت ذراع ابنتها.. وسال الدم.. ولعقته بلساني.. وكذلك ذراع ابنها.. ثم ذراعها هي.. وأتت بعلبة البن ووضعت مسحوق البن على كل الجروح!

وعندما فكرت في هذا الذي حدث في طفولتي فهمت لماذا كتبت مقالات في مجلة كلية الآداب بإمضاء «حي بن يقظان». حي بن يقظان.. هذا بطل قصة كتبها الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل.. وهي قصة طفل تبنته غزالة وأرضعته.. وعاش بين الغزلان يمشي على أربع.. وينطلق بسرعة.. ويعيش حيوانا بين هذه الحيوانات.. فأنا - إذن - ذلك الانسان الغزال.. الانسان الهارب من الانسان..

فقد كان هذا حلما من أحلام الطفولة أن أعيش بين الآخرين.. لا بين أهلي وأقاربي.. وإنما بين آخرين لا يملكون إلا حرية التنقل.. فلم أجد الاستقرار العائلي ولا الجدران المتينة.. كأني يتيم.. أو أنني يتيم.. كأنني طفل قد تبنوه في ظروف لا أعرفها.. كأنني شرعي المظهر، لا شرعي الاحساس..

وعلى الرغم من أنني عرفت عن الغجر في مصر وفي أسبانيا وفي إيطاليا وفي ألمانيا ما جعلني أكرههم.. أو أنفر منهم.. وما جعلني أرى أنهم ليسوا جميعا من الفلاسفة أو المفكرين.. فهم لم يختاروا هذه الحياة.. وإنما فرضت عليهم. وكل ما يتمناه أي غجري هو بالضبط ما يتمناه كل بحار.. يريد أن يستقر على شاطئ.. وكل طيار يريد أن يسكن على الأرض.. وكل ضال أن يهتدي، وكل هارب أن يعود..

ولم أفهم إلا أخيرا لماذا اخترت مثل هذين البيتين من الشعر وعلقتهما في غرفتي في مدينة سيدني باستراليا:

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب
وصار البر مرتع كل حوت وصار البحر مرتع كل ذيب!

فقد وجدت فى حديقة حيوان مدينة سيدنى غرابا أبيض.. وقفزت إلى معنى آخر: أن العرب كانوا يرون أن الغراب الأبيض لا وجود له.. فهو المستحيل.. فلما وجدت الغراب الأبيض هتفت قائلا: الغراب الأبيض موجود.. فلا مستحيل يا عرب!

ولكن المعنى الحقيقى الذى فى أعماقى هو: أننى أنشد المستحيل.. فلا قرار ولا استقرار.. ولا أمن ولا أمان.. فلن أجد أهلى.. ولا أريد.. والحوت إذا سار على الشاطئ فهذا مستحيل.. والذئب إذا عاش فى البحر فهذا هو المستحيل..

ولكنى وجدت أن هذا هو الممكن.. فالشاطئ ما الذى عليه.. عليه الناس.. المجتمع.. والمجتمع هو الحوت الذى يحتوى الناس.. إننا جميعا فى بطن حوت.. فليس يونس وحده.. أو «ذو النون» هو الذى ابتلعه الحوت.. وإنما كل الناس.. والقرآن الكريم يقول: «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه. فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين..»

إن نجاة النبى يونس من بطن الحوت تحتاج إلى معجزة.. إلى الله.. ولا نجاة للناس من الناس إلا بقوة الله!

وما الذى يفعله الناس فى بطن الحوت.. إنهم ذئاب يأكل بعضها بعضا.. فالحيتان على الشاطئ، والذئاب أيضا، والذئاب فى الماء وعلى الشاطئ أيضا..

* * *

ولست أدرى متى أعود إلى الغوص من جديد فى أعماقى لا أعرف لماذا كان ما كان... ولماذا لم أكمل ما بدأت.. ولماذا أشعر بأن الذى أكملته ليس إلا مرحلة.. وليس نهائيا.. فلا شىء نهائيا.. وحتى بعد الموت، فنحن نستأنف الحياة بصورة أخرى.

هكذا تقول لنا الأديان. وهكذا استرحنا إلى ذلك..

والكاتب الفرنسى بلزاك كان يقول لمن يجده مهموما يريد أن ينفرد بنفسه: لا أعرف بالضبط ما الذى سأكتبه. كل الذى أشعر به هو أننى أريد أن أكتب..

والمؤلف البوليسى جورج سيمنون كان يذهب إلى الطبيب. ويجرى فحصا عاما. ويطمئنه الطبيب على قلبه وعلى معدته وعلى ضغطه وتنفسه. وبعد ذلك يدخل إلى مكتبه حيث يوجد سرير ومطبخ صغير. ويعلق ورقة على بابه تقول: مشغول حتى نهاية الأسبوع.

وعند نهاية الأسبوع يكون قد فرغ من إحدى رواياته التى بلغت ٢٥٠.

أما المؤلف المسرحى الأسبانى لوبه دى فيجا الذى كتب ٢٢٠٠ مسرحية فكان يترك ضيوفه قائلا: لقد نسيت شيئا.

ثم يذهب إلى مكتبه ويغيب ثلاث ساعات. وبعدها يعود سعيدا. قائلا: كتبت مسرحية كاملة!

ثم يستأذن من الضيوف لحظات.. ويعود ضاحكا: إن الخادمة قد عرفت عاداتى السيئة.. لقد أخفت المسرحية.. ولو وجدتها لمزقتها كلها لأعيد كتابتها من جديد!

وقد نسى الأديب الأمريكى همنجواى حقيبة بها عدد من القصص القصيرة وضاعت الحقيبة. ولكنه نزل من القطار. وجلس فى مطعم بمحطة سان لازار بباريس وكتب القصص التى ضاعت!

وفى يوم اكتشف الكاتب الأمريكى جون اشتاينبك أن كلبه قد أكل روايته «الفئران والناس».. فما كان من الكاتب الكبير إلا أن استأجر أحد الأتوبيسات وأدخل الاتوبيس فى حديقة بيته. ثم جلس يكتب الرواية كاملة، من الذاكرة!

* * *

وعندى إحساس دائم، بأن الذى كتبته من الممكن أن يكون أفضل. وأطول. فما من مقال كتبته إلا أحسست أننى مخنوق تماما كأننى ارتديت ملابس طفل صغير.. ثم إننى حريص على أن أبدو مقبولا وفى نفس الوقت ألا تتمزق هذه الملابس.. بعد أن أصبحت أطول وأعرض..

ثم أعود إلى الذى كتبته، فأوضحه أو أضيف إليه..

ولذلك فكثير من المقالات أتناول فيها نفس المعنى، ولكن بصور أخرى.. فكأننى ألف وأدور حول المعنى لأراه وأوضحه، أو لأجسده لنفسى أحسن.. ثم أضيف إليه من إحساسى أو من تجارب الآخرين..

وأذكر أننى سألت صديقى الروائى الايطالى البرتو موارفيا فى ذلك. فقال: إن الفنان الحقيقى هو الذى يكرر نفسه.. لأن لديه معنى واحدا.. أو فلسفة واحدة.. يعبر عنها فى ظروف مختلفة.. ولو رجعت إلى كل مسرحيات شيكسبير لوجدت أن شخصياته لا تزيد على ست شخصيات.. هذه الشخصيات الانسانية يضعها فى كل مسرحياته.. أى يهيىء لها ظروفا ومشاكل مختلفة.. ليرى ما الذى تفعله.. فهو يكرر نفسه. لأن لديه

معنى واحدا.. فالمعانى مثل ينبوع واحد.. أو نهر واحد.. تتفرع منـه عشرات القنوات.. والفنان مثل البلبل: له أنشودة واحدة!

ولما تعمقت فى دراسة الفلسفة الوجودية وجدتها تتحدث عن الانسان نفسه فتصفه بأنه «مشروع».. أى بأنه فكرة تنمو وتكبر يوما بعد يوم..

أى أن الانسان حيوان ناقص، وهذا الحيوان يحاول أن يـكبر وأن يزداد حجما وسلطة وحرية يوما بعد يـوم.. فـأنت تسـاوى بـالضبط ما تكتبه.. ما ترسمه.. ما تلحنه.. أو تغنيه.. أنت تسـاوى عملك. ولمـا كنت أنت ناقصا، فعملك كذلك.. ومادمت حيا. فالكلمة الأخيرة لم تقلهـا بعد..

فكل شىء «ليس بعد».. أى لم يكمل بعد..

الموتى هم الذين اكتملوا. قالوا ما عندهم.. آخر ما عندهم.. ولـذلك يمكن الحكم على الموتى.. يمكن نقدهم.. لأنهم قد فرغوا من الكلام..

ولكن الفيلسوف الوجودى سارتر وهو صاحب هذا الرأى، قد أصـدر أطول كتاب عن أديب ما يزال حيا. فقد جاء كتابه عن الأديب الفـرنسى «جان جينه» فى ألف صفحة. الكتاب عنوانه «القديس جينيه ـ شـهيد وكوميدى».. وقد رأى سارتر أن الأديب الفرنسى رغم أنه ما يزال حيـا، فقد فرغ تماما من كل ما لديه من أفكار.. فليس عنده ما يضيفه.. كأنه مات!

ثم أصدر أطول كتاب فى تاريخ النقد الأدبى عن أديـب مـات هـو فلوبير. فقد جاء كتاب سارتر فى ثلاثة أجزاء. وهو فى هذا الكتاب يتحدث بتفصيل وجمال وعمق، عن الأديب الذى لا يحبه، لأنه نموذج لـلأديب الذى لا يلتزم بقضايا عصره. كذلك كان فلوبير.. ومن مبادئ الفلسـفة

الوجودية أن الأديب ملتزم. ولابد أن يكون ملتزما. وحريته لها قيد واحد: هو الالتزام بالعصر!

وقد رأى سارتر فى هذا الكتاب، أن الأديب فلوبير قد مات مرتين: مرة يوم وضع فى التراب، ومرة قبل ذلك عندما قرر أن ينزوى وأن يعتزل عصره. فحكم على نفسه بالموت. ولذلك فمن المنطقى أن يكتب عنه.. لأنه مات مرة بعد مرة؟

* * *

وفى نهاية كتابى «وداعا أيها الملل».. جاءت بعض المقالات من الممكن أن تكون نظرة فلسفية إلى الحياة.. أى أن تكون «مذهبا» فلسفيا.. وربما كانت كلمة «نظرة» هى أكثر تواضعا من كلمة «المذهب» لأن المذهب أعمق، يحتاج إلى وقت أطول وإلى تأمل أكمل، لكى أناقش هذه المعانى ومدى قدرتها على الشمول: أى على تفسير الكون والانسان والحياة والحرية والجمال والخير والعدل والموت والحياة بعد الموت..

فبعد عشرين عاما من كتابة المقال الذى عنوانه «المسافات التى بيننا».. والمقال الذى عنوانه: «فلسفة ما» احسست أخيرا أننى استطيع أن أعود إليها وأملأ ما بين الكلمات بالمعانى والأحداث التاريخية والأدبية والنفسية.. أى أن أكسو العظام لحما..

وأرى أن دراسات أخرى كثيرة يمكن أن أعود إليها لو اتسع الوقت..

وفى كتابى «يسقط الحائط الرابع» حوار تليفونى بين العقاد وطه حسين والحكيم.. كنت أسأل العقاد عن رأيه فى طه حسين.

ثم أسأل طه حسين عن رأى العقاد فيه..

وأسأل الحكيم عن رأيه فيهما..

ثم أعود إلى العقاد أناقشه فى رأى الحكيم.. وبعد ذلك أسأل طه حسين..

وقد نشرت هذا الحوار التليفونى ـ وكان للعظماء الثلاثة رأى فى كل منهم، وفى دوره التاريخى.

وبعد أن نشرت الحديث، وضعته فى كتابى المسمى «يسقط الحائط الرابع».. ولم أجد إلا معنى واحدا: «شقاوة» صحفية.. لأننى أعرفهم الثلاثة..

وكان من الممكن أن يصبح هذا الحوار التليفونى أساسا لكتاب فى أدب ونقد وفلسفة هؤلاء الثلاثة. ولكنى لم أفعل.. ولا تزال هذه الفكرة تشغلنى..

ونشرت رواية مسلسلة فى مجلة «الجيل» بعنوان «عريس فاطمة».. وظللت أحلل شخصية فاطمة. وأضعها فى ظروف اجتماعية صعبة ومعقدة حتى وجدتنى عاجزا عن إكمال القصة.. عاجزا عن إخراجها من المصاعب التى غرقت فيها.. وتوقفت ورحت اتعلل بأسباب كثيرة لعدم إكمال هذه القصة. ولكن الحقيقة أننى لم أستطع..

وأخيرا وجدت الحل. فقد كنت أقرأ رواية «المعنى الحزين للحياة» للفيلسوف الأسبانى الوجودى اونا مونو.. فجأة وجدت الحل.. فقد وقع الفيلسوف العظيم فى نفس الحفرة. ولكنه خرج من المأزق بأن ادار حوارا بينه وبين البطل.. أى بين المؤلف والبطل. يقول له البطل: كيف قررت أن تميتنى؟

أى أن البطل يسأل المؤلف: على أى أساس قرر أن يموت البطل.

لماذا لا يعيش أطول. لماذا لا يجد له حلا أفضل.. إنه هو الذى اختار له النهاية واختار له البداية.. وإن هذه عقدة المؤلف الذى لا يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه فيتسلى بأن يحكم بالموت على الآخرين !!

وهكذا أكملت قصتى بحوار بينى وبين البطلة التى عاتبتنى. واتهمتنى بأننى أنا الذى وضعت نفسى فى مأزق.. فأنا الذى اخترت صفاتها وأهلها وظروفها.. وأنه كان من الممكن أن تكون النهاية أفضل، لو أننى غيرت البداية..

ولو اتسع وقتى لفعلت ذلك..

فأنا لست مشغولا بالصورة النهائية لكل الذى أكتبه.. ولكن الذى يشغلنى هو ما أفكر فيه الآن وما أكتبه الآن.. ولا أكاد أكتبه حتى أنساه.. ولكن عقلى يروح ويجئ، ويلف ويدور.. ويعلو ويهبط، ويلقى ضياء على ما سبق أن رأيت وتأملت وقرأت..

وكما يحدث عندما أجلس للكتابة أن أزيل من أمامى الكتب والأقلام والورق والعقاقير.. لكى أرى المكتب خاليا تماما.. وكما أحب أن أنظر من النافذة فلا أرى إلا مساحات لونية وضوئية.. ولا تتركز عينى على شىء.. وأذنى على شىء.. فإننى هكذا أيضا عندما أشغل نفسى بالتهيؤ لكتابة شىء كبير.. دراسة كبيرة.. كتاب متكامل.. لا أحب أن انشغل عنه بشىء آخر..

ولذلك فكل فصول هذا الكتاب الذى بين يديك كان من أملى أن أجعلها كتبا مستقلة.. كل فصل يمكن أن يجئ كتابا. ولو جلست أفعل ذلك لاستغرق وقتا طويلا ولشغلنى تماما عن الذى فى رأسى. ولذلك قررت أن أنحى هذه الكتب عن رأسى تماما، لكى أتمكن من التفرغ التام لشىء

جديد.. هم جديد.. قلق جديد.. ضوضاء فى رأسى وفى أذنى.. برج حمام وحشى يتضارب ويتخبط ويشاكس بعضه بعضا.. عشرات الأجراس ترن. ومطلوب أن أرد عليها حالا.. كأننى أم ترضع عشرين طفلا معا.. ولا صبر عندهم، ولا إشباع لجوعهم، ولا مفر منهم.. مجالات مغناطيسية تدور حولى وتجذبنى وأقاومها وأطاوعها.. قاعة كبرى امتلأت بالمقاعد والمناضد وبقايا الطعام والشراب ورائحة التبغ.. لابد من تفريغها وتنظيفها وتنظيمها استعدادا لحفلة كبرى بعد ذلك.. شىء من ذلك احسست به. فكان لابد أن أسجل كل «مشروعات» الكتب التى هى «ليست بعد» كتبا.. وهى مثل مقالات طويلة جدا ومركزة. لا هى مقالات ولا هى كتب.. وإنما هى أطول من مقال وأقصر من كتاب. إنها «مشاريع كتب».. إنها ما تسميه الفلسفة الوجودية: الـ «ليس بعد»..

وفى اللغة العربية تجد كلمة تناسب هذا المعنى تماما..

ففى اللغة العربية تجد: بسر.. وابتسر.. أى تعجل الشىء قبل نموه ونضجه..

والبسر أى الشىء الغض.. وكذلك يطلقه العرب على التراب الذى سقط عليه الماء حديثا.. أى لم يصبح طينا بعد..

ويقال: بسر النهر أى حفر فيه بئرا.. والنهر جاف..

وابتسر الثمرة أى قطفها قبل أن تنضج.

والطفل المبتسر هو الذى ولد قبل الآوان..

وكان الرسول عليه السلام قبل أن يخرج للسفر يدعو الله هكذا: اللهم بك ابتسرت، وإليك توجهت وبك اعتصمت، أنت ربى ورجائى... اللهم اكفنى ما أهمنى وما لم أهتم به، وما أنت أعلم به منى، وزودنى

التقوى، واغفر لى ذنبى، ووجهنى للخير، أين توجهت».

وكلمة «ابتسرت» التى جاءت فى دعاء الرسول معناها : بدأت السفر.. وكل فكرة هى إحساس مبتسر.. أى ناقص، ويحاول الكاتب أن يتممه.. يكمله.. فى مقال أو فى قصة أو رواية أو مسرحية أو بحث..

ولذلك فكل الأفكار مبتسرة.. الأعمال الأدبية كذلك..

ولا أعرف، متى أعود، أو يعود الكاتب إلى إكمال ما كتبه.. أى ما سجله ناقصا.. ولكنه وعد بينه وبين نفسه.. وإن لم يكن وعدا فهى حقيقة. أن كل شىء ناقص.. أن كل شىء قد اتخذ شكله النهائى.. إلا قليلا.

وإذا كان الكاتب لم يقل كلمته الأخيرة بعد، فكذلك الانسانية لم تقل كلمتها النهائية. ولن يكون ذلك إلا فى نهاية الزمان..

وكان الفيلسوف الفرنسى ارنست رينان يتمنى أن يولد عند نهاية العالم، ليعرف آخر ما قاله الانسان.. وكيف انحلت مشاكله.. وسكن قلقه.. واستتب طموحه.. وكيف أصبح كل شىء كاملا.. تماما كما هو فى عقل الله.. فالله هو الكمال..

وعندما تخيل الفيلسوف العظيم أرسطو صورة الله.. وجد أن الله لا يصح أن يفكر فى الكون.. لأن الكون ناقص، والله الكامل لا يفكر فى الناقص.. ولذلك فقد وصف المؤرخون معنى الله عند أرسطو بأنه «ادار ظهره لهذا الكون».. لأنه لا يليق بجلاله وكماله أن ينشغل لحظة بالناقص التافه الفانى من الأشياء..

وإنما الله قد أودع القوانين فى الكون.. وترك الكون يمشى وفقا لحكمته هو.. والكون يمشى ويتحرك لأنه يريد أن يتغير وأن يتبدل

ليقترب من الصورة التى أرادها الله..

وكل فنان يرى فى نفسه لمسة من الالوهية.. أى لمسة من الابداع.. والله سبحانه وتعالى هو المبدع.. والله قد خلق الانسان على صورته.. أى بالعقل والحكمة والتطلع إلى المثل الأعلى.. أى إلى حكمة الله.. ولذلك فالأديب والفنان مشدود إلى الأمام.. إلى إكمال ما بدأه.. إلى المضى فى «المشروع».. أى يجعل الذى «ليس بعد» صورة لها ما بعد.. ما بعدها..

وعندما تصور المتصوف الألمانى اكهارت كيف يكون الكون فى صورته الكاملة.. وجد أنه يشبه القطب الشمالى.. بارد أبيض ساكن ميت.. بارد لأنه لا أحد هناك.. أبيض لانعدام كل ألوان القلق والمرض والعذاب.. ساكن لأن كل شىء قد بلغ نهايته.. ولذلك، فلا حركة نحو هدف.. ميت، لأن الموت كمال الحياة.. الموت مثل نضج الثمرة. فليس بعد ذلك إلا سقوطها على الأرض..

أما الحياة فهى «الليس بعد».. أى الاضطراب والقلق والطموح والخوف والحرية والثورة والغضب والانتهازية والجشع.. فالكل يجرى من أجل صورة أخرى.. من أجل إكمال الذى لم يكمل.. فكل شىء وكل حى وكل فكرة قد تحققت إلا قليلا..

وعندما صدر أول كتاب لى كان اسمه «وحدى.. ومع الآخرين». وقد كنت فى مدينة دمشق أتنقل بين المكتبات ـ وفجأة وجدت هذا الكتاب مطبوعا فى بيروت. لا أنساه. لونه قرمزى فاتح. وعليه شريط أصفر. وعلى هذا الشريط عنوان الكتاب.. واسمى على الجانب الأيسر من الغلاف.. مفاجأة سارة جدا. أول كتاب. أول مولود. أول خطوة فى طريق طويل بدأ

فى نهاية سنة ١٩٤٧ بكتابة القصة المؤلفة والمترجمة.. والقصيدة المترجمة والمؤلفة..

شيء واحد ضايقنى فى عنوان الكتاب هو حرف «الواو».. فقد كان العنوان الذى اخترته هو «وحدى مع الآخرين». وعرفت فيما بعد أن الصديق الكبير كامل الشناوى هو الذى أضاف «الواو».. أما المعنى الذى أراده فهو أننى أكتب عن نفسى وعن الناس.. أى التأملات العقلية والواقع الملموس..

ولكن المعنى الذى قصدته لم يدركه الأستاذ كامل الشناوى. فأنا أردت أن أقول إننى حتى عندما أكون مع الناس فأنا وحدى مع نفسى.. أو أستطيع أن أكون ذلك.. فالناس معى، هذا صحيح. ولكنى لست معهم. إننى فى عالم آخر.. عالم آخر من رؤيتى وسمعى وخيالى..

إننى من المصابين بالسرحان الشديد.. فعندى هذه القدرة الهائلة على أن أسرح.. فلا أدرى بأحد أو بشيء.. وقد أبقى كذلك ساعات طويلة.. ولا أعرف بالضبط أين أنا.. وما الذى يدور فى داخلى.. ولكن عندى هذه القدرة على أن أنفصل عن كل الذى حولى.. فلا أرى ولا أسمع ولا أتابع.. عندى هذه القدرة على أن أطفئ الأنوار وأغلق النوافذ وأطرد كل من حولى فى ثانية واحدة.. وقد ضاق الناس بهذا «السرحان» الذى يرونه إهانة لهم، وإغفالا لقدرهم، واحتقارا لشأنهم.. ولكن اعتدت على أن أتابع بعض ما يقولون.. فأبدو كأننى أفهم ما يقولون.. والحقيقة أننى غير ذلك تماما.. بل إننى أجلس أمام التليفزيون وأنظر إليه ولا أعرف بالضبط ماذا جرى.. لم أر.. لم أسمع.. ولكنى الذى يرانى يخيل إليه أنه لا صغيرة ولا كبيرة قد غابت عن عينى.. ولذلك يمكن أن أرى الفيلم الواحد عشرات المرات وكأنه جديد

تماما.. لأننى لم أشهده فى أى وقت.. وتبدأ مشاكلى التى لم تنته، عندما يتعلق ذلك بالناس.. فأنا أصافح ببرود من أعرف جيدا وأصافح بحرارة من لا أعرف.. ويذهب الناس فى تفسير ذلك إلى ما لا يرضينى.. وأنا فى حيرة. ولا استطيع أن أعتذر لكل الناس عن هذا العيب. ولم أوهب القدرة على أن أضحك فى وجه الذين لا أعرفهم كأننى أعرفهم، ولا فى وجه الذين أعرفهم كأننى سعيد بذلك.. فحالة السرحان هذه هى «انسحاب عقلى» اجبارى.. أو توقف اضطرارى فى داخلى.. تماما كما يفعل الناس فى مواجهة سيد البيت أو رئيس العمل، فتتوقف الحركة فى الغرف المجاورة.. لا صوت.. لا حركة.. لا اضاءة.. وإنما كل شىء همس.. احتراما له، أو تمكينا له من العمل أو النوم..

وأنا عندما أجلس إلى الناس.. فإننى أطفئ كل الأنوار وكل النوافذ فى داخلى.. وأترك حارسا واحدا.. بوابا.. جنديا.. أما عقلى كله.. فمثل عمارة خرج منها السكان.. وأغلقت الأبواب والمصاعد وحنفيات المياه.. وعدادات النور.. لا شىء.. لا أحد.. وإنما فقط حارس أمام الباب يتابع ما يجرى حولى من كلام وحركة..

ولو عرف كثير من الناس الذين أجلس إليهم وأحرص على لقائهم أو بقائهم أو حديثهم، أننى لست موجودا تماما معهم، ما فتحوا أفواههم بكلمة واحدة.. أو مكثوا فى مكتبى أكثر من دقيقة.. فالذى يتحدثون إليه ويجلسون إليه، ليس هناك.. خرج منذ وقت طويل!.

إننى أنتسب إلى هؤلاء الذين يمشون أثناء النوم.. كأننى كذلك.. أو كأننى غارق أطفو على الماء من حين إلى حين لكى ألقى نظرة على البحر أو على الشاطئ.. أو كأننى نوح فى الطوفان.. والناس هم الطوفان، أفتح نافذة لأطل منها وبعد ذلك أغلقها، وأنا أستمع بوضوح

إلى صوت الموج وصوت الرياح.. أو كأننى أحد رواد الفضاء قد ارتدى بذلته الألكترونية الفخمة ولكنى لا أسمع ما حولى.. وإنما أنا فى عـزلة علمية تكنولوجية تامة.. أو كأننى أحد السباحين الذين قرروا أن يعبروا المحيط فغطيت جسمى بطبقة من الشحم تعزلنى عن الحرارة والبرودة.. والتى تجعل جسمى أقل مقاومة للماء..

وكثير من الناس يضيقون بركوب القـطار أو السـيارة أو الـطيارة مسافات طويلة. ولكنى لا أضيق. فالمقعد الذى أجلس عليه، كأى مقعد. إنه مقعد معلق فى الهواء أو تحت الماء أو فوق القمـر.. فـأنا لا أدرى بشىء حولى.. وإنما أنا غارق فى داخلى..

وينطبق على حالتى ما قاله الشاعر الألمانى هينه عندما رأى الشاعر الفرنسى هيجو. قال: لقد انقلبت عيناه من كثرة النظر إلى داخله فلـم نعد نرى إلا بياضهما!

فهل سبب هذا السرحان عدم قدرتى علـى التـركيز علـى العـالم الخارجى. ربما لضعف نظرى. فأنا لا استطيع أن أرى تفاصيل الـدنيا. وإنما أراها كلها جملة واحدة. آراها شاملة. ولذلك فأنا لا أنـظر إلـى العالم قطعة قطعة.. أو شخصا شخصا.. وإنما عموما.. هل هـذا هـو السبب.. أو هل لأننى مشغول بمعنى الذى أراه.. والمعنى هو التفسـير الشامل لكل الأشياء.. هل هى الدراسة الفلسفية التى جعلتنـى مهتمـا بالكليات لا بالجزئيات.. بالناس وليس بفلان.. بالأشجار وليس بشجرة.. بالطيور وليس بعصفورة واحدة.. بالدنيا وليس بالحياة.. بـالكون وليس بالأرض.. بالخلق وليس بالمخلوقات..

ربما كان هذا أحد الأسباب..

وليس معنى ذلك أننى غائب تماما، وإنما أحيانا.. وليس معنى ذلك أننى غريب عن الدنيا، وإنما مغترب بعض الوقت.. وليس معنى ذلك أننى أغمض عينى لأرى خيال الحياة.. ولكنى أغمض عينى لأرى أوضح، وأسد أذنى لأسمع أعمق، وأسرح لأفهم أسرع..

ولقد أمضيت سنوات طويلة أقف بباب محل «البن البرازيلى» فى شارع سليمان باشا.. مرتين فى اليوم.. مرة فى الصباح الباكر فيما بين السابعة والنصف حتى التاسعة.. ومرة بعد الظهر فيما بين السابعة حتى الثامنة والنصف.. ثم أتوقف ببابه ذهابا وإيابا فى أى وقت.. كنا مجموعة من الأصدقاء نعمل فى الاذاعة ووكالات الأنباء. أصدقاء وزملاء الدراسة ورفاق المهنة.. وعلى باب البن البرازيلى وفى داخله وأمامه وفى الطريق إليه.. كنت أجدنى مشدودا مجذوبا.. بالزحام حولى لا أدرى به.. أجسام تروح وتجئ.. وألوان تتداخل.. تطفو على وجه بحيرة من البن.. أو فى ضباب من البخار.. أحيانا أحس كأن المحل ميناء على بحر من البن الأسود والبن باللبن.. والكابوتشينو والشاى.. وأننى بحار ينزل إلى الأرض.. سعيد بأنها ثابتة تحت قدمى.. أما الذى يتحرك فهو البحر.. الموج.. الهواء.. والحيوانات والناس والحيتان التى تخوض هذا البحر.. أو أن البحر هو الآخر ثابت جامد.. أما الذى يتحرك فهو أنا.. رأسى أو ما فى رأسى..

أو كأن محل البن البرازيلى سفينة تتحرك وسط الأمواج والأهوال..

أو أنها قطار وصل إلى نهاية الخط الحديدى.. وأنه واقف.. قرر الوقوف.. تعب من الانسياب على القضبان الحديدية.. وما صوت البخار ورائى إلا غليان القطار.. وأنا أحب صوت القطار وشكله وما يحدثه من

حركة ولهفة بين الناس.. وأراه وأرانى من عائلة واحدة: الغليان والأحضان والانطلاق.

وكنت أجد محل البن البرازيلى مثل «الحمام التركى» الذى يستحم الناس فى بخاره.. ولكن بخاره من البن والشاى.. حمام يغسل الرأس ويغلى الفكر وينضج المعانى.. كنت على بابه أحس كأننى مثل أحد أبراج الحمام، والمعانى حمام وغربان وصقور.. كنت أقف كأننى «خيال المقاته» ـ أى العصا التى يضع عليها الفلاحون جلبابا لانسان فى حقل القثاء، فتهرب الطيور الجارحة فلا تأكل ثمار الأرض.. ولم يكن على أرضى شىء أخاف عليه.. وإنما كنت خيالا يستدعى الخيال ويستدرج الصقور من كل نوع.. وليس فى أبراجى طيور جارحة.. طيور فقط.. فأنا الذى أضع ريشها وأنزع أنيابها ومخالبها. وأطلقها حماما بريا أو حماما زاجلا..

وعلى باب البن البرازيلى أكتب كل ما أشعر به فأنا واقف فى مكتبى.. وأنا مع الناس ولست معهم.. أفتح عينى ولا أرى، وأذنى ولا أسمع، وأزاحم ولا هدف، وأشرب ولا طعم.. إننى فقط ألقى فى داخلى بالوقود وأتزود بالزاد.. وانتظر أصدقائى وأعاتبهم أنهم تأخروا ثم أغيب عنهم فى أبخرة البن والشاى.. وأرى الوجوه الحلوة تروح وتجئ وأبتسم.. أو أرد على ابتسامة.. وأحيانا أتابع بعينى الجمال والدلال خطوات ثم اتجه ناحية أخرى.. و...

وعرفت كيف أن أرشميدس خرج من البانيو يصرخ يقول: وجدتها.. وجدتها.. وكان فى حيرة علمية فهو يريد أن يعرف كيف يكون حجم الانسان.. واهتدى إلى أن الانسان يساوى كمية الماء التى تخرج من البانيو إذا دخل هو فيه.. ولا أدعى أننى اكتشفت مثل الذى اكتشف.

ولكن من المؤكد أننى أحسست كثيرا وتخيلت..

وحتى بعد أن تنقلت بين القارات الخمس.. كنت أعود إلى هذه المسافة الضيقة من الأرض بباب البن البرازيلى.. وعلى هذه المساحة الضيقة أتلفت حولى.. كأننى مرصد فلكى له عدسة ضخمة تجوب الفضاء الخارجى وهى لا تبرح مكانها.. أو كأننى العين نفسها الصغيرة ف جحرها ترتاد الدنيا حولنا وهى ف مكانها.. كأننى الرأس الذى استقر على الكتفين، ولكنه وسع الأرض والسماء، ما كان وما سيكون من مخلوقات الله، والله أيضا.. كأننى القلب الصغير الغارق فى الظلمات والدم.. ولكنه مصدر النور والحب والرحمة.. كان دمى من البن الأسود، ولكن هذا الدم الأسود هو مصدر النور والحور مصدر الأفكار والابتكار.. هو الذى يمدنى بالقوة الهائلة لأرى الناس ذهابا وإيابا وأتابع باللهفة والرغبة كل خد جميل وشفة وصدر وساق.. سنوات على هذا الباب.. كأننى على باب جهنم أو على باب الجنة.. أو كأنه مثل أبواب الفنادق دوار، مرة إلى الجنة ومرة إلى النار، مرة إلى الداخل ومرة إلى الشارع..

وكان يومنا مثل البن يبدأ ساخنا مرا.. ثم ينتهى فاترا فلا نشعر به.. ويتجدد مع البن نشاطنا وحيويتنا.. لا أظن أننى كنت أعرف طعم البن.. أو طعم الشاى.. كأن البن فكر ألقى به ف طاحونة عقلى وندور معا، هواء أدفعه إلى مروحة خيالى وندوخ معا.. ونضيع..

وكان جوابى اليومى على أين نلتقى ومتى فأقول: ف البن..

ولا أذكر الساعة. فمن المعروف أننى هناك صباحا ومساء..

ولم أفكر كم من الوقت ضاع. ولا كم من العمر.. أكثر من عشرة

آلاف ساعة فى أكثر من عشر سنوات..

لم أكن شاذا عندما نزلت من الطائرة واتجهت بحقيبتى إلى محل «البن البرازيلى» وبعد أن شربت القهوة ووقفت. وتلفت. وانتظرت. ورأيت وتنهدت وتوجعت وتمنيت اكتشفت أننى كنت على سفر، وأننى لم أذهب إلى البيت أو إلى المكتب.. فحملت إليه حقيبتى. فهو الطريق إلى كل طريق. والبداية لكل نهاية فما الذى هناك؟

لا شىء. لا أحد. أنا الذى هناك. أما الذى أريده فهو أن أكون فى الزحام أقاومه ثم لا أدرى به. ومن هذا الزحام تتولد مقاومة سرية فى داخلى لكى أكون وحدى بين الأجسام والألوان والأصوات والروائح، اتصدى لها واتحداها وأسد منافذ الحس عندى وأعكف على داخلى..

هناك فى البن: الدخان والاحتراق..

هناك ذرات القهوة .. كل ذرة كأنها «طبلة مسحراتى» توقظ كل خلية نائمة.. هناك أجد متعتى الكبرى فى أن أكون على الشاطئ.. الأرض ورائى والبحر أمامى.. هناك الوجود والعدم.. أنا الوجود وما عداى عدم.. هناك الصومعة.. فمحل البن صومعة راهب.. امتلأت بأصوات الدنيا. ولابد أن أنزه نفسى عنها. فليس راهبا من يعيش فى الصحراء، لا يقاوم إلا نفسه.. ولكن الراهب هو الغارق فى الدنيا، ويرفضها.. غارق فى اللذة ويزهد فيها.. ملاك بين شياطين..

كأن محل البن البرازيلى أحد المعامل.. إحدى سفن الفضاء.. كأنه خيمة أسرة غجرية: أفرادها كثيرون وليست بينهم صلة أو علاقة.. إنهم معا، وليسوا معا.. إنهم خائفون معا حائرون معا، غرباء معا.. يتمسكون بحبال من أبخرة القهوة والشاى وسعداء بوحدة «الكيف». وبهذا التحدى..

فعلى الرغم من أن البن الذى نشربه اسمه البرازيلى فقد اختلط بالذرة المصرية والفول والحمص.. ولكنه ما يزال يحتفظ بأكذوبة أنه جاء من البرازيل.

وكثيرا ما عاب علينا الناس أننا نقف بباب البن وأمامه نعترض الناس.. ثم ما الذى يجعلنا هكذا نتسكع على بابه.. مع أننا لسنا عاطلين ولا فارغين ولا تافهين..

ورغم هذه المعانى، وبسببها كنا نقف ولا يهمنا ما الذى يقال. إننا نريد أن نقف. وفى هذا الوقوف كنا نحس أننا لسنا على الأرض.. وإنما فوقها.. ولسنا فوق الأرض.. وإنما فوق العمارات.. كأننا اريال لالتقاط الصوت والصورة.. كأننا تلك الأعواد المعدنية التى يضعونها فوق العمارات لتمتص الصواعق فلا تحترق العمارات.. كأننا أصابع لامعة نشير إلى النجوم.. أو كأننا تلك الأعمدة القوية الجبارة من الماء التى تخرج من رأس الحوت دليلا على أنه غاص تحت الماء وأنه يريد أن يطفو، ولذلك يفرغ الماء من أعماقه لكى يخف وزنه..

لا أحصى عدد الأفكار التى جاءت وهبطت واستقرت.. الأفكار الدائرة والأفكار الزائرة والأفكار اللاجئة.. الأفكار التى تنفر منها الأفكار، والأفكار التى هى أذرع ممدودة ترحب بالشاب والجديد.. ولا أعرف كم مرة انعقد الزواج بينى وبين أحلامى.. ولا أعرف كم مرة خرجت الطرق ممدودة واسعة من رأسى لأسير عليها.. ولا أعرف كم مرة نسجت أحلامى كما ينسج العنكبوت بيته ودودة القز تابوتها الحريرى..

ولا كم مرة رأيت تبادل المواقع بين عقلى وقلبى.. فمرة أجد قلبى على كتفى ومرة أجد عقلى بين ضلوعى.. ولكنى فى كل الأحيان كنت أحس قلبى يدق فى رأسى، ومعدتى فى يدى..

كم مرة تمنيت لو كنت البطل أوقيانوس أبتلع هذا الكون وأستريح فى فراغه.. وكم مرة تمنيت أن أكون «شعاعا» أجوب الدنيا وارتد حول نفسى.. أو انطلق ولا أعود..

هل كنت أنام واقفا؟ مرة واحدة. وأدركت يومها أننى من فصيلة الخيول التى تنام واقفة. فقد أسندت ظهرى إلى الحائط وأغفيت لحظات. ولكنى نمت. ورحت أضحك. فقد رأيت فيما يرى النائم.. وأدهشنى أن كل هذا الذى رأيته لم يستغرق إلا لحظات. ولكن العقل أسرع من الضوء. فأنا فى لحظة واحدة أجدنى على باب الجنة. اتخيل ذلك. وربما كانت المسافة بين البن البرازيلى والجنة ألوف ألوف ملايين السنين الضوئية.. كل ذلك رأيته فى لحظة واحدة!!

ويجئ ماسح الأحذية. ويدق قدمى. ويرفع إحداهما ويضعها على الصندوق. وأنظر إليه كأنه عفريت خارج من أعماق البحر.. ثم يدق بفرشاة. فأرفع قدمى الأخرى. ويصبغ الحذاء بالأسود. ثم يدق بالفرشاة بما معناه أنه انتهى من عمله. وأنه يريد حسابه ليتركنى ويبحث عن حذاء آخر. وكان ذلك يحدث كل يوم. لا أحد طلب منه أن يفعل ذلك. لا أحد رفض. أو استنكر. أنا أفكر وهو يعمل. وكثيرا ما نسيت أن أحاسبه. وكثيرا ما جاءنى بالقهوة. وكثيرا ما أشرت بيدى أطلب إليه أن يضع يده فى جيبى. لقد أصبحنا.. زملاء.. أصدقاء.. أبناء أسرة واحدة.. كل ما يلمسه يلمع.. وأنا كل ما أجده فى رأسى يلمع.. هو صاحب لمسات لامعة، وأنا صاحب أفكار لامعة. فاللمعان والبريق والوميض والنور هى التى تجمع بيننا..

فى أحد الأيام قال لى: عندى عروس لك..

لابد أنه يرثى لحالى واقفا كل يوم بالساعات. وحدى: مرض ليس له

إلا علاج واحد: الا نقف هنا. وإنما أن تكون لنا بيوت. وزوجة وأولاد.. أما هذه الوقفة.. هذه «اللطعة» فدليل على أننا ضائعون مضيعون..

قلت: لكى نقف معا فى محل واحد؟

ـ كيف؟

قلت: ألا تشكو كل يوم من زوجتك.. إننى فى كل مرة اجىء إلى البن أجدك هنا.. فما الذى فعله الزواج بك!

قال: يا سعادة البيه. وهل أنا مثلك.. أنت رجل متعلم ولك وظيفة. أنا كما ترى وجهى فى الأرض.. وهل تحترم زوجة رجلا يملأ صدره من تراب الجزم!

ونهض الرجل ليكون فى مستواى وقال: الله يخليك ابحث لى عن عمل آخر عندكم..

ـ وتجئ البن البرازيلى؟

ـ كل يوم.. والله العظيم سوف أترك عملى وأقف مع سيادتك..

ـ أى أنك سوف تفعل ما نفعله تماما، رغم زواجك ورغم انتقالك إلى عمل آخر.. بل إنك سوف تعرض نفسك للخطر إذا تركت عملك وجئت تقف معنا هنا..

ثم قال: البن أصبح أفيونة.. أنتم أصبحتم بالنسبة لى أفيونه يا سعادة البيه.. إننا نعرف بعضنا البعض منذ عشر سنوات. عمر يا سعادة البيه.. نصف عمرى.. فاكر يا سعادة البيه.. يوم سرق اللصوص حافظة نقودك.. أنا الذى دفعت لك القهوة أنت وضيوفك.. فاكر..

وكنت قد نسيت ذلك تماما..

واستأنف: والتاكسى.. أنا الذى دفعت أجرة التاكسى.. أخوة.. عيش وملح.. فاكر الأستاذ محمد عبد الوهاب.. عندما شددته بالقوة ليشرب فنجان قهوة.. والأستاذ عبد الحليم.. والست الخواجاية.. أنا الذى دفع الحساب.. شرف.. وعشرة.. أين أذهب.. ففى مصر محلات كثيرة للبن، ولكن هذا البن مزاج.. أى والله!

وهو بالفعل كذلك.. ليس المحل الذى هو مزاج، ولكن مجموعة من الصفات والمواصفات التى تريح الرأس والجسم، وتجعلنى فى الوضع المناسب لتفكيرى.. فأنا هكذا واقف على الجانب الأيمن للمحل.. وفى يدى فنجان القهوة، وفى فمى مرارة، وفى رأسى صحوة، وفى قلبى عزيمة.. ثم إننى وحدى..

وبعد البن البرازيلى أتجه إلى مكتبى.. إنه فى شارع شواربى.. فقد كنت أعمل فى جريدة «الأساس».. وبعدها فى جريدة «الأهرام» وفى «روز اليوسف» ثم فى «أخبار اليوم».. تغيرت الأماكن وأشكال الكتابة وأحجام الكتب.. وبقى البن البرازيلى «موقف» البن البرازيلى..

وعندما كتبت مقالى اليومى فى «الأخبار» ثم فى «الأهرام» اخترت له عنوان «مواقف».. إما لأن الفيلسوف الوجودى سارتر قد اختار كتابا فى أربعة أجزاء بعنوان «مواقف».. وإما بسبب هذا «الموقف» البنى البرازيلى.. ولم تكن مواقف سارتر إلا مقالات طويلة. ولكنها مواقفه الفلسفية والأدبية والسياسية. والحياة مواقف. والفلسفة مواقف. والانسان يساوى بالضبط مواقفه..

* * *

وكما يحدث فى أبراج المراقبة فى المطارات، أن تسجل الطائرات القريبة والبعيدة، وتحدد لها اتجاهها وسرعتها وارتفاعها.. وترسم لها طريق الهبوط.. فكذلك أنا أقف حكما بين أفكار متباعدة ومتقاربة وهابطة على مهلها وهابطة اضطرارا.. ولا أعرف إن كانت الطائرات تخرج من رأسى أو تأوى إليه..

والعقل الانسانى يستدعى الأحداث البعيدة، لأسباب لا أعرفها بوضوح.. ولكن لابد أن يكون هناك سبب.. فالعقل الانسانى ليس مثل الحاسب الالكترونى.. لأن الحاسب الالكترونى يعطيك الذى أودعته فيه.. إنه مثل البنك تسحب منه ما أودعت مع فارق واحد أن البنك قد يضيف إليك أرباحا.. أما الحاسب فهو يعطى بسرعة هائلة ما أودعته.. أما العقل الانسانى فهو يعطى ويضيف ويبدع.. ويعطيك ما لم تكن تعرف. وما لم تكن تفكر فيه..

أذكر أننى كنت فى جزر هاواى وتذكرت زجلا على أمساكية شهر رمضان فى بلدة أبى حمص. كنت فى هاواى سنة ١٩٥٩ وكنت فى أبى حمص قبلها بخمسة وعشرين عاما. ولا وجه للشبه بين الجمال والروعة التى بهرتنى فى جزر هاواى ولا بين فوانيس رمضان فى بلدة أبى حمص. راجع كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» فى الفصول عن جزر «هاواى»..

وعلى أثر هذا الحوار مع ماسح الأحذية، وما آثاره فى داخلى من موجات وتيارات وتراجعات تذكرت أبياتا حفظتها منذ كنت طفلا. ولا أعرف من الذى نظمها ولكن لا استبعد أن تكون قد جاءت فى مقامات الحريرى وكان والدى معجبا بها. تقول الأبيات:

لا تقعدن على ضر ومسغبة لكى يقال عزيز النفس مصطبر

وانظر بعينيك هل أرض معطلة من النبات كأرض حفها الشجر
وانقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذى يهوى به المـطر
وأستنزل الرى من در السحاب فإن بلت يداك فليهنـك الـظفر
وان رددت فما الرد منقصة عليك قد رد موسى قبـل والخضر!

وربما كان المعنى الذى تداعى مع الموقف هو الا ييأس الانسـان.. أى أن الذى قاله ماسح الأحذية يدل على يأسه وعلى ضـيقه أو علـى خوفه علينا. وكأننى عندما تذكرت هذه الأبيات تذكرت نوعا من المقاومة لهذا المعنى ودعوة لشحذ الهمم والأمل والتفاؤل..

وكان هذا المعنى عميقا فى داخلى فتذكرت أبياتا لوالدى، أعتقد أنها من مقامات الحريرى وكان والدى أديبا، وإن لم يكن رغيفه قد اشـتراه بالشعر وقراءة القرآن ورواية الأحاديث النبوية والأذان والصلاة..

يقول والدى أيضا:

يقولون إن جمـال الفتـى	وزينتـه: أدب راسـخ
وما إن يزين سوى المكثرين	ومن طود سـؤدده شـامخ
فـأما الفقيـر فخيـر لـه	من الأدب القرص والكامخ
وأى جمال لـه أن يقـال:	أديـب يعلـم أو نـاسخ

والمعنى أن الأدب يزين الأغنياء، ولكن الفقير يحتاج إلى الـرغيف والزبد.

وكان والدى يردد ما جاء فى مقامات الحريرى هكذا: أن رجلا ذهب إلى قرية.. إنه أديب مؤمن بأن الأدب لا يشـبع ولا يـروى.. وسـأل الناس: هل يباع هنا الرطب بالحطب؟

فقيل له: لا والله..

فسأل: ولا البلح بالملح ولا العصائد بالقصائد؟

فقيل له: لا والله.

فسأل: ولا الثرائد بالفزائد. ولا الدقيق بالكلام الدقيق.

فكان الجواب: فى هذا المكان لا يباع الشعر بشعيرة ولا النثر بنثارة.. ولا القصص بقصاصة. ولا الرسالة بغسالة. ولا حكم لقمان بلقمه. ولا أخبار الملاحم بلحمه.

ولم يجد الرجل حلا لمشكلة الجوع والعطش إلا أن يبيع السيف فاخذه واحد من الناس وهرب ولم يعد..

وهكذا يترنح العقل بين تأييد للرأى ومعارضة له. بين الوقوف معه والوقوف ضده. وأحس كأننى برج بابل اهتز يمينا وشمالا.. فليس العالم أمامى هو الذى يهتز وحده ولكننا جميعا نهتز ولا نتحرك. كالرادار.. مثل قرون الاستشعار عند الحيوانات والحشرات..

وكثير من المعانى نهتدى إليها أثناء النوم.. أو عندما نصحو من النوم. ومعنى ذلك أن النوم قد فصل العقل عن المؤثرات الصوتية والضوئية حولنا.. فلما اتسع وقته وطال سكونه، استخرج المعانى والصور التى غابت عنه عندما كان صاحيا..

إن العالم الرياضى الفرنسى بوانكاريه قد اهتدى إلى إحدى المعادلات الرياضية الصعبة وهو يضع قدمه على سلم الأتوبيس.. لقد عانى هذه المعضلة وتركها. وانشغل عنها. ولكن العقل عكف عليها، دون وعى منه، حتى وجد لها حلا..

وأذكر أننى عندما كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية، كان مدرس الألعاب الرياضية يخرجنى من الطابور ويقول لى: اخرج أنت يا ابنى..

الله يفتح عليك.. اقرأ لك كتابا.. أما هؤلاء فهم طلبة فاشلون..

ولم يكن المدرس يدرى أنه يحقق لى أغلى وأعز أمنياتى.. الا أقوم بأى نشاط رياضى.. أو اجتماعى.. وأن أنزوى وانطوى وأقفل نفسى على نفسى وأسرح.. فى لا شىء!

وكنت أحتفظ فى جيبى وإلى جوار فراشى بنوتة صغيرة وقلم.. فكثير من الأفكار مثل الطيور المهاجرة.. تحط على رأسى.. ولذلك لابد أن أسجلها بسرعة.. كأن رأسى جهاز استقبال مفتوح دائما.. وهو يلتقط كل الأصوات على كل الموجات.. ولا أعرف أين مصدر هذه الأصوات.. ولا كيف جاءت.. ولذلك فإننى أبادر بتسجيلها بسرعة.. بعض هذه الأصوات إجابة عن أسئلة فى رأسى سمعتها.. ولم أجب عنها.. أو سألتها لنفسى.. وبعض هذه الأصوات أفكار عابرة.. أو مشروعات طائرة.. تماما كما يسمع هواة اللاسلكى رسائل من مكان إلى مكان.. رسائل واضحة أو رسائل شفرية.. أو يستمعون إلى استغاثات من سفن فى عرض البحر.. أو من طائرات.. وبعض أجهزة الرادار والمراصد الفلكية تستمع إلى أصوات تتردد بين الكواكب البعيدة ألوف الملايين من الأميال عن الأرض.. أو يسجلون بعض الشعاعات التى انطلقت من ألوف ملايين السنين، ولم تصلنا إلا أخيرا.. إن شيئا ما يجئ دائما من مكان ما، لسبب ما. وكل شىء يستحق أن أسجله.. فقد انشغلت به بشكل ما، فكانت هذه الأفكار مثل كرة الاسكواش تضربها لتعود.. مثل حمام الزاجل.. مثل المهاجرين واللاجئين والهاربين والنادمين والضالين، لابد أن يعودوا ويتوبوا.. ولابد أن يقولوا لأحد أى أحد فى أى مكان: إنا هنا..

ولذلك يجب أن أكون جاهزا لتسجيل ذلك..

ثم عدلت عن ذلك تماما..

فقد وجدت أن القلم والورق إذا كانا إلى جوارى، نهضت رغبتى فى أن أكتب.. وهذا يقلقنى. ويباعد النوم عن عينى..

ووجدت أن كل الأفكار التى خطرت على رأسى لن تذهب.. لن تضيع.. سوف تعود.. فلا شىء يموت.. وإنما كل ما فى الكون يتوالد.. ويتواصل.. ويكمل بعضه بعضا..

فأنا أعيش على لحوم الأبقار، والأبقار تعيش على الأعشاب والأعشاب تعيش على التربة والتربة هى بقايا إنسان وحيوان.. فكل شىء يعيش على شىء آخر.. والحياة تتولد من الحياة.. والأفكار تتوالد وتتعايش ويختفى بعضها فى بعض مثل موج البحر.. ولكنها هناك دائما.. فلا خوف منها ولا خوف عليها..

وآمنت بما آمن به الأديب البريطانى آرثر كونان دويل من أن الأشياء تلقى ظلالها على العقل.. وله قصة جميلة فى هذا المعنى: أن رجلا كان يحلم كل ليلة حلما واحدا. ولم يجد لذلك تفسيرا عند أحد من الناس. ثم اهتدى إلى أن فى غرفته مقعدا كان يجلس عليه رجل قتل وهو يكتب وصيته لخادمته.. وكان هذا هو الحلم الذى يراه كل ليلة بمنتهى الدقة.. إذن فهو المقعد الذى يحكى قصته.. يشع هذه القصة على عقله كل ليلة!

وكذلك الورق والقلم كان وجودهما إلى جوارى دعوة ملحة فى أن أجلس وأن أكتب.. وألا أنام!

وأعود مرة أخرى إلى «كيمياء الفكر».. فكثيرا ما أشعر أن درجة اليقظة والتنبه عندى زائدة.. أكثر مما يجب.. وأننى أكاد أكون عصبيا..

وأنا أعرف مقدما ما سوف يحدث.. سوف أكتب كثيرا وبسرعة فلا أعرف كيف أقرأ ما كتبت ولا أحد من الذين سوف ينقلون خطى بالآلة الكاتبة.. ولذلك أحاول أن أخفض درجة اليقظة العقلية وذلك بأن أتناول بعض الطعام.. أو استمع إلى الراديو أو نشرة الأخبار.. أو الأغاني.. وقد «أسرح» فأنسى ما الذى أفعله ولماذا.. كأن آكل أكثر مما يجب.. أو أجد نفسى مشردا بين الاذاعات والأغانى.. وهنا أجد أننى بددت يقظتى.. فلم أعد قادرا على الكتابة.. وأعدل عنها نهائيا..

وأكتفى بتسجيل بعض الأفكار أو مشروع المقالات لأعود إليها فى اليوم التالى..

وأحيانا أجدنى مرهقا. أعرف ما الذى سوف أكتبه بوضوح. ولكن همتى وعزيمتى خائرة. فأنا أحتاج إلى تنشيط. ويكون هذا التنشيط بعمل الشاى. فقط الشاى بسكر قليل جدا. أو ببعض اللبن.. بشرط ألا أتناول أكثر من كوب.. أما الكوب فهو مشكلة أخرى. فلأننى لا أعرف بالضبط كم كوبا سوف أشرب. ولأننى أكره أن يتغير طعم الشاى أو درجة حرارته. فإننى أضع الشاى فى كوب كبير جدا.. «شوب» أكبر من شوب البيرة.. وبذلك أضمن طعما واحدا للشاى ودرجة حرارة واحدة.. وكثافة واحدة.. قد أشربه كله أو بعضه.. وقد لا أشربه.. فأنا أحاول تنشيط قدراتى العقلية..

فأنا كما يقول الطبيب العظيم جالنيوس : لست إلا وعاء من السوائل يختلط بعضها ببعض. ومن هذه السوائل يتكون المزاج..

الذى اسميه أنا «كيمياء التفكير».. أو البيئة الداخلية للعمل العقلى. لأن هناك بيئة خارجية أيضا. ومن اعتدالهما وانسجامهما، أصبح أنا قادرا على الكتابة..

ولذلك أطلت النظر فى حياة «حيوان اللؤلؤ» وكتبت عنه كثيرا.. فهو يعيش فى صدفة من الجير المنيع. وهو يطبقها على نفسه.. برجا صدفيا.. أو صومعة محكمة.. أو معملا نائيا.. أو غواصة.. سفينة فضاء.. فى حماية تامة من أى تدخل خارجى.. حيوان اللؤلؤ هذا ينطوى فى داخل معمله يفرز هذه المادة اللامعة التى نسميها اللؤلؤ.. فى درجة حرارة لا تتغير.. وعلى ارتفاع ثابت عن سطح الماء ومن قاع المحيط.. أى فى مجال مغناطيسى تتساوى قوته على جوانب حبة اللؤلؤ.. وهذا ما اهتدى إليه علماء الفضاء أخيرا.. فهم يرون أن كل قطرة من الزجاج السائل أو الصلب السائل تكون كاملة الاستدارة فى منطقة «انعدام الوزن».. لأنه لا توجد قوة جذب من أية ناحية. وعلى ذلك فجوانبها تكون كاملة الاستدارة.. وقد اهتدى إلى ذلك حيوان اللؤلؤ بالغريزة.. أنه لكى تكون الحبة كاملة الاستدارة، يجب أن تكون جميع قوى الجاذبية الأرضية ثابتة لكى يتحرك بمقتضاها فيقاومها.. حتى تكتمل الاستدارة لكل حبات اللؤلؤ.. أما الحيوان القلق الذى يعلو ويهبط.. ويفتح أبوابه ويقفلها.. والذى يبرد ويسخن ويجوع ويمرض فهو العاجز تماما عن «تكوير» حبة اللؤلؤ.. وكذلك المفكر والفنان!.

* * *

ولا أدعى أننى سوف أعود بقلمى وخيالى وهمتى وعزيمتى إلى إعادة النظر والتأمل فى كل هذا الذى كتبت.. وإنما يكفى أن أوهم نفسى بذلك.. فإن اتسع العمر والصدر، فلعلى أفعل ذلك..

وإلا فأنا وأفكارى وأنت أيضا قد قلنا كل ما لدينا.. إلا قليلا!

فالكاتب يشبه الذى يقف أمام القاضى ويقسم: أن أقول الحق ولا شىء إلا الحق.. وكل الحق!

أما أنه يقول الحق فصحيح.. ولا شىء إلا الحق فصحيح أيضا.. أما «كل» الحق فليس صحيحا..

فلا أحد يعرف «كل » شىء..

ولا أحد قال «كل» شىء..

وإنما بعض الشىء بعض الوقت..

.. أى الحقيقة.. إلا قليلا!

أنيس منصور

القاهرة - أكتوبر ١٩٨٣

خيول في حياتي !

١

كل الذى أذكره وأنا طفل صغير أن القطار يمر أمام البيت.. ويكون له صفير.. ثم تتساقط أعواد القصب.. ويجرى الأطفال والرجال يجمعون القصب.. وكان والدى يخرج هو الآخر. يتجه ناحية أعواد القصب.. فإذا رآه الجميع أفسحوا له الطريق.. ورفعوا أيديهم عن الأرض.. وتراجعوا.. إنه مأمور الزراعة.. مأمور تفتيش عدلى باشا يكن رئيس الوزراء..

ولا أعرف بوضوح معالم البيت الذى كنا نسكنه.. كان واسعا ضخما.. له بوابات عالية.. نحن ندخل من بوابة والخيول والأبقار والجواميس والأغنام والفلاحون يدخلون من البوابة الأخرى..

ويكون والدى قد أمسك حصانا فى يده اليمنى وأنا فى يده اليسرى.. وكان يتركنى ويتجه إلى الحصان يتحدث إليه ويداعبه ويمشى بيده على عنقه وعلى جسمه.. وكان الحصان يصهل.. ويرفع رأسه ويدق الأرض بقدميه.. وذيله يضرب فى كل اتجاه.. ويشير أبى إلى أحد من الناس.. أو دون إشارة منه يأتون له بأعواد القصب التى يقدمها للحصان..

أما هو ـ أى الحصان ـ فلونه بنى لامع مرفوع الرأس طويل العنق.. له عينان مكحولتان.. وله علامة بيضاء فى رأسه.. وله خصلة من الشعر تتدلى.. وإذا نفخ الهواء من أنفه، نصحونا أن نسارع بأن نسمح وجوهنا وإلا ظهرت الدمامل على الوجه والجسد.. ولذلك يسارع الأطفال

بأن يمسحوا وجوههم بذيل ملابسهم.. وكان والدى يضحك.. ولم ينصحنى مرة واحدة بأن أفعل مثلهم.. ولا هو فعل ذلك.. بل إنه كان يقف فى مواجهة الحصان ويميل برأسه على عنقه وأحيانا يقبله فى علامته البيضاء..

أما هو - أى أبى - فهو طويل القامة أبيض الوجه.. أخضر العينين.. ضاحك الثغر.. حلو الكلام.. تمتد يداه يداعب كل طفل.. ويرفعها بالسلام على كل أحد.. وكثيرا ما أخفى يده فى جيبه ليخرج بشىء من المال إلى الناس.. وأحيانا يمد يده ليخرج ورقة صغيرة ملفوفة، بها آية قرآنية كريمة.. وكان والدى رحمه الله يتداوى بالقرآن.. إذا مرض قرأ القرآن، وإذا شفى قرأ القرآن.. وإذا شكا إليه أحد كتب له آية من القرآن.. حتى الحصان وكان اسمه «سرور» إذا مرض ذهب أبى إليه وراح يقرأ حوله القرآن الكريم ويدعو الله له بالشفاء..

وعند فجر أحد الأيام صحوت ولم أجد والدى فكان من عادته أن يذهب ليتوضأ ويؤذن لصلاة الفجر.. ويصلى.. ثم يصنع الشاى بالنعناع : كوبا له وكوبا لى.. ثم لا ينام. وقد ترك لى هذه العادة. فأنا لا أنام فى أى يوم بعد صلاة الفجر.. وفى ذلك اليوم ارتدى ملابسه وعلق بندقيته فى كتفه.. ولما لاحظ أننى أمسك بملابسه قال : تعال معى..

ونزل واتجه إلى حظيرة الخيول. وأضاء المصابيح. ووجد «سرور» واقفا. ولم يكد يرى والدى حتى راح يصهل.. واتجه إليه. ووقف والدى يداعبه.. ويربت عليه.. وأخرج من جيبه حفنة من السكر وفيها بعض الأعشاب الطبية. ثم فك لجام الحصان. وسحبه إلى الخارج.. وراح يمشى به أمام البيت.. ثم وضع بطانية على ظهره. وربطها ربطا محكما. وراح يقرأ آيات من القرآن الكريم.. وكنت فى ذلك الوقت لم أحفظ القرآن

الكريم. كنت دون السابعة. والذى أذكره أنه قال «وجعلنا من بين أيديهم سدا، ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وعرفت فيما بعد أن الحصان قد أصابه الحسد.. فقد كان جميلا ضخما شامخا رفيع المقام.. عاليا متعاليا على كل الخيول والحمير والبغال فى الاصطبل..

وسمعت أن والدى سوف يقدمه هدية للباشا.

وعندما أنظر من النافذة وأجد الحصان قد وقف بعد أن تم تجهيزه باللجام والسرج، أعرف أن والدى سوف يخرج للتفتيش أو للسفر. وكان والدى إذا ركب الحصان وعلق بندقيته على كتفه. يتبعه ثلاثة من الخفراء على ظهر ثلاثة حمير. وقد حملوا السلاح أيضا.

وفى إحدى الليالى كان إصرارى شديدا على أن أرافق والدى. وكان يحبنى. ولم يشأ أن يتركنى أبكى. ولكن أمى رفضت أن أذهب معه إلى سماع منيرة المهدية سلطانة الطرب. وأمام عزم والدى على أن يصحبنى، استسلمت أمى. وقليلا ما كانت تفعل ذلك لأى سبب.. وكان الطريق إلى مدينة ملوى وسط حقول القصب. ولا أذكر شيئا من كل ذلك. فلا يكاد الحصان يتحرك حتى يغلبنى النوم. فإذا نزلت عن الحصان لكى أجلس إلى جوار أبى أو على ساقيه، يغلبنى النوم أيضا. وكلما حاول أحد أن يحملنى إلى داخل البيت، كان والدى يرفض.

وعرفت فيما بعد أن هناك أناسا كثيرين يملكون الخيول ولكن «سرور» من نوع آخر. إنه حصان عربى أصيل. وهذا شىء نادر بين الناس. ولذلك فأصحاب الخيول الأخرى لا يكادون يرون هذا الحصان حتى يقبلوا عليه. ويسألوا عن صحته وعن سنه، وعن أمه وأبيه. وكان والدى يروى قصصا وحكايات وشعرا ونوادر كثيرة..

وسمعت من والدى قصة غريبة.. يرويها كثيرا. ومعناها: أن ربنا كان كريما معه، من أجل قلبه الطيب من أجل أولاده الصغار وبسبب دعاء والديه..

كان لابد لوالدى أن يسافر إلى مصر ليلتقى بدولة الباشا وقد حمل كل إيجار الأرض ومبيعات القطن والقمح وقصب السكر. ركب حصانه وتبعه الخفراء.. وكانت ليلة مقمرة. وكانت مسيرته بين حقول القصب على الجانبين. والليل صامت. والهواء خانق. ولا صوت يعلو على صوت الضفادع والصراصير وعواء الذئاب ونباح الكلاب ونهيق الحمير والصياح المبكر للديوك.. ولم يكن سرا أن والدى قد جمع مالا كثيرا، وأنه فى طريقه إلى القاهرة. وتشاء رحمة الله أن يجعل والدى يرفع صوته عاليا بالسلام على شخص لم يره، ولكن لا يستبعد أن يكون قريبا منه.. ونهض رجل ثم رد عليه السلام.. وواصل والدى طريقه إلى محطة السكك الحديدية.. ومنها إلى القاهرة. وعاد ليقول لى ولأمى ولأخواتى ولضيوفه الكثير عن تكملة هذه القصة:

فقد قابله عدد من قطاع الطرق وقالوا له: تعرف ماذا حدث يا سعادة المأمور؟ إن الولد أبو الحسن قتلناه أمس..

أما أبو الحسن هذا فهو الذى كان جالسا ثم رد تحية والدى. ومن تقاليد اللصوص أن أحدا إذا ألقى عليهم السلام ثم ردوه، فمن العار أن يقتلوه. وإلا اعتبر اللص خائنا للأمانة.. ولذلك قتلوه لأنه أضاع عليهم الأموال التى كان والدى يحملها معه إلى القاهرة!

وكان والدى يرحمه الله يقول: إننى أدين بحياتى لواحد لاخلاق له!

ويقول والدى إنه لم يكن يرى هذا اللص فقد كان القمر بدرا.. وكان

كل شيء لامعا أبيض وأصفر.. ولكن «سرور» هو الذى راح يصهل فى غضب، دليلا على أنه يرى أو يسمع أحدا.. أو يتوجس شرا. فما كان من والدى والخفراء إلا أن وضعوا بنادقهم أمامهم استعدادا لمواجهة العدوان..

ولم يكن أبو الحسن واضحا، ولكن الله هو الذى ألهم والدى أن يقول: السلام عليكم.

فخرج أبو الحسن من وراء كوم تراب صغير، يرد السلام والأمان.. ومات أبو الحسن وعاش والدى، وتسلم الباشا عشرات الألوف من الجنيهات!

وكان والدى يقول متلطفا مجاملا: كان فى نيتى أن أسميك أبا الحسن.. لولا أن خالك اسمه أبو الحسن.. ولولا أن والدتك هى التى صممت على أن يكون اسمك مثل اسم خالتك التى تحبها.. فأبو الحسن هذا الذى انقذ حياتى.. وبعد أيام ولدت أنت!

٢

لم ننم فى تلك الليلة.. لقد كانت ليلة القدر.. ومن عادة والدى أن يتلو القرآن بصوته الجميل.. وأن يجئ قارئون آخرون وأن يكون دعاء.. وأن تكون صلوات..

وكنا نسأل عن ليلة القدر ويقال لنا: فى ساعة لا يعرفها إلا الله تنفتح «طاقة» فى السماء.. وبسرعة يغلق الله هذه الطاقة.. ولذلك يجب أن نطلب من الله بسرعة كل الذى نريده.. وسمعت من أطفال كثيرين أنهم رأوها.. وأنهم لم يكادوا يطلبون شيئا حتى أغلقت على مطالبهم، تماما كما ينقفل الباب على أصبع أو على قدم.. وكانوا ينصحوننا بأن نظل ساهرين وأن نظل نجلس أمام البيت أو فوق السطوح، وأن ننظر إلى السماء.. وأكثرنا كان يستغرقه النوم، وأقلنا يتوهمون أنهم رأوها.. ولكن والدى كان يقول إن السماء مفتوحة طول الليل ولذلك فهو يدعو الله حتى مطلع الفجر..

وقبل أن ينام والدى فى تلك الليلة ذهب لرؤية الحصان. ودعا له ثم عاد ليشرب الشاى وأنا معه ثم يروى بعض الشعر، ويجعلنى أردده وراءه.. حتى أحفظه.. ولم أنم تلك الليلة. وقد خفت أن أسأل والدى عن الذى سوف يحدث للحصان «سرور».. فقد سمعت والدى يقول لأحد الفلاحين: خذه واستخدمه فى جر النورج!

ونمت. وعندما صحوت ذهبت أبحث عن الحصان فلم أجده. وعرفت أن والدى قد سافر إلى القاهرة.. ولكن وجدت حصانا آخر يجر النورج..

وكان الفلاحون يستخدمون الخيول أحيانا بدلا من الأبقار والجواميس فى النورج لتفصل القمح عن سنابله.. وبسرعة ركبت النورج وتربعت وأمسكت عصا فى يدى.. ونمت. وفجأة وجدتنى تحت النورج. وصرخت وتوقف الحصان. فقد كان مريضا متعبا.. ولولا أن الحصان كان مرهقا، ما توقف.. ولسار النورج فوق رأسى وظهرى..

ولما علم والدى بذلك. قرر أن «يكافئ» الحصان.. فضمه إلى خيوله. ولم يعد يجر النورج!

وأحببت الخيول. أراها. وأقترب منها. وأتحدث عن سجاياها وعن أثرها فى الشعر وفى المواصلات وفى الهجرة.. وكنت أراها جميلة نبيلة..

وكان والدى يقول إنه عندما يمرض فإن الحصان يمتنع عن الطعام.. وإذا كان والدى غاضبا، لأى سبب، وسمع صوت أبى، فإن الحصان يكون عصبيا..

بل إن الفلاحين يؤكدون أنهم إذا جلسوا حوله وتحدثوا عن والدى بسوء، فإن الحصان يكون قلقا عصبيا، كأنه يريد أن يقطع حباله ويروى لوالدى ما سمع؟!

كان والدى يقول إن هذا الحصان أعز عليه من ابنه ومن أخيه..

وكان يقف أمامه ويقول له: لو كنت تنطق..

ولكن ملامح الحصان ناطقة.. ووالدى يعرف ما يقول أو ما يعجز عن أن يقول!

٣

مرض والدى.. وأرقده الضعف. وكنت أجلس إلى جواره أحس كأنه حصان.. ظل واقفا طول عمره.. أما الآن فهو يجرب القعود والرقود لأول مرة.. ولكن، حتى وهو نائم، كأنه مرفوع الهامة ممشوق القامة..

وفى إحدى الليالى قال لى والدى: يبدو والله يا ابنى أننى قاربت النهاية..

ـ لا.. سلامتك.. أطال الله عمرك..

ـ فقد رأيت «سرور».. وكان غاضبا.. ومزق الحبال.. ثم جاء وحملنى وطار بى فى الفضاء.. وكنت سعيدا.. وكان هو أيضا.. واقتربنا من الشمس ولم تكن ساخنة.. وصحوت من الحلم مستريحا. . كأننى شفيت تماما..

ولم أجد ما أقوله تعليقا عى ذلك.. إلا البكاء..

واستحلفنى أبى أن أذهب إلى الملاهى.. وأن أخفف عن نفسى .. فوالدى لا يطيق أن يرانى هكذا حزينا..

وكنت فى حاجة إلى ذلك. وذهبت وبعد ساعة عدت إلى البيت حزينا كئيبا وحاولت أن أغير ملامحى. ولكن لم أفلح. فنادانى والدى وسألنى: إن كان الطبيب قد قال شيئا جديدا.

فأقسمت لوالدى أننى لم أره..

ـ إذن فلماذا الحزن على وجهك يا ولدى؟..

ـ لا شيء!..

ـ وحياتى لابد أن تقول الحقيقة!

قلت: إنه صديق لى ضربته سيارة ونقلوه إلى المستشفى!

ـ لابد أن تزوره يا ولدى..

ـ سوف أفعل!

ولم يكن ذلك صحيحا. وإنما أردت ألا أشغل والدى. لأن الذى حدث أبشع وأقسى من ذلك كثيرا..

ففى مدينة الملاهى كانت إحدى الفتيات تقوم بلعبة خطرة.. ولكنها تقوم بها مرة كل ليلة. وفى تلك الليلة وبمناسبة زيارة السيد المحافظ أدت هذه اللعبة الخطرة مرتين.. مرة أمامه، ومرة أمام زوجته وأولادها وضيوفها..

فالفتاة إنجليزية.. تصعد سلما عاليا. وتركب حصانا ضخما. ثم تقفز بهذا الحصان وهى فوقه إلى حوض من الماء. ولا تكاد تصل إلى الماء حتى تقفز خارجة ومن ورائها الحصان..

رأيت الحصان يصعد الدرج فى شباب وهمة وعزيمة.. عالى الرأس ومن حوله الأضواء وتعلقت به عيون الناس.. وهزنى هذا المشهد وبكيت حتى لم أعد قادرا على الرؤية.. فالدم يكاد يخرج من عينى.. ولم أشاهد هذه اللعبة الخطرة من قبل.. وأعلن مذيع «مدينة ملاهى على حسن» بإمبابة، أن الفارسة سوف تقفز هى والحصان إلى الماء.. الآن.. واحد.. اثنين.. ثلاثة.. اقفزى..

وسقطت هى والحصان فى الماء.. وتناثر الماء.. وخرجت من الماء.. وكان الحصان قد نزل برجليه.. ثم نام على جانبه.. ثم نهض مبللا..

لا استطيع أن أصف شكل الحوض أو حجمه أو عمق الماء.. وهل كان مغطى بالمطاط.. أو كان كله من المطاط.. لا أعرف.. وكل الذى أعرفه أننى أحسست كأننى سقطت فى الماء تحت الحصان.. وأننى لم أخرج من تحت الماء.. وأحسست بشلل تام فى ساقى.. وأذكر أننى جلست على الأرض.. دائخا أتصبب عرقا.. فقد كانت هذه اللعبة أكبر من احتمالى.. وأفدح من استطلاعى.. ولم أجد فى هذه اللعبة ما يلهو به الناس.. وإنما هى توجع قلوب الناس.. وتحطم أعصابهم.. ولم أكن قد عرفت بعد أن الملاهى هى الشىء الذى يثير الانسان.. يهزه.. وعن طريق الهز العنيف تتساقط متاعبه.. تماما كما تهز شجرة فتتساقط ثمارها.. أو كما ينفض الكلب والأوز نفسه فيتساقط الماء بعيدا.. أو كما تنفض سجادة بضربها بالعصا فيتطاير التراب العالق بها.. أو مثل الصدمات الكهربية التى تستخدم فى علاج مرضى الأعصاب.. أو مثل الكى بالنار، إحدى وسائل الطب القديم فى العلاج.. فالكى يستخدم لعلاج الصداع والأوجاع وذلك عن طريق إحداث وجع أقوى من الصداع، فتضيع أوجاع أخرى مثل الصداع والحمى والأرق..

ورحت أتنقل بين جوانب مدينة الملاهى، كأننى أمشى أثناء النوم.. أحاول أن أنسى الذى حدث.. ولم أفلح فقد تبددت طاقتى تماما..

وفجأة أعلن المذيع أن الفارسة البريطانية سوف تقوم بعملها البطولى مرة أخرى تكريما لضيوف حرم السيد محافظ الجيزة..

وقررت أن أخرج من الملاهى فورا.. ولكننى لم استطع أن أقاوم رؤيتها والاعجاب بالحصان ذلك الحيوان الفخم النبيل..

واضيئت الأنوار.. ورأيت السلم العالى أوضح.. إن له سورا، وهو يهتز تحت أرجل الحصان.. وكانت الفارسة قد ارتدت المايوه.. وسمعت حولى من يصفر إعجابا بساقيها.. ولا أدعى أننى رأيت ذلك.. فقد كنت مشغولا بالحصان وقال بعضهم: إنها عصبية جدا. وإنها فى حالة غضب..

ورأيت الحصان يقف عند حافة السلم ويحنى رأسه كأنه يقيس المسافة بين السلم وبين حوض الماء.. وسمعت من يقول: إنه خائف!

ولم أصدق ذلك. وقفز الحصان ونزل فى حوض الماء الذى تناثر إلى كل الاتجاهات. وقفزت الفارسة.

أما الحصان فظل فى الماء. لم يتحرك. لم ينهض.. لقد مات!

إنها أبشع موتة رأيتها فى حياتى. إننى لم أبك على أحد كما بكيت على هذا الحصان. لم أعرف قسوة الانسان إلا فى تلك الليلة.. فالانسان يسخر الحصان للهو. ومات. واتجه الناس يبحثون عن تسلية أخرى. أما الفارسة فراحت تبكى وتلطم وتشد شعرها.. وتقبل عنق الحصان.. تقبل حوافر قدميه.. وخرج رأس الحصان من تحت الماء مستندا على جدار الحوض.. وفجأة رأيت الحوض داميا.. فقد سقط الحصان على رأسه.. ومات فورا!

وعرفت أول أزمة معوية ومعدية.. وعرفت تقلصات المصران الغليظ.. وكانت هذه التقلصات عبارة عن أسلاك شائكة من النار تلتف حول شىء ما فى أعماقى.. شىء لا هو المعدة ولا هو القلب.. شىء يريد أن يسحبنى إلى داخلى.. يريد أن يكوينى.. يريدنى أن أموت..

ومات أبى يرحمه الله ولم يعرف ما هذا الذى حدث.. فقد وجدت فى

موت الحصان، والحصان الذى رآه أبى فى النوم ما يشير إلى موته هـو أيضا..

وظللت سنوات طويلة لا أقوى على رؤية أفلام رعاة البقر.. فقد كنت أتوقع أن يسقط أحد الخيول فى أية لحـظة.. فـإذا حـدث عـاودتنى التقلصات القديمة!

٤

كنت فى باريس.. أسكن فندقا متواضعا فى الحى اللاتينى.. المهم أنه فى الحى اللاتينى.. على مسافة أمتار من جامعة السوربون.. ومن المكتبات الجميلة على ضفة نهر السين.. وكنت أسأل المصريين والفرنسيين عن الأماكن الرخيصة للطعام والشراب والملابس.. فالأموال قليلة. والأمل فى البقاء طويلا لا يتيسر إلا إذا كان الانفاق قليلا..

وأمسكت ورقة وقلما وجعلت أحسب كم يتكلف الغذاء كل يوم فى مطعم بعيدا عن الفندق. فى حى اسمه بار بيس.. كانت الوجبة تساوى نصف جنيه ـ وكان ذلك فى سنة ١٩٥٠ ويقال إن هناك مطاعم أرخص من ذلك كثيرا، حتى بعد أن تضيف إليه تذكرة المترو ذهابا وإيابا..

فى كل يوم، ولمدة ثلاثة شهور، أذهب إلى حى الباربيس أتناول غذائى فى مطعم جزائرى. المطعم صغير. نظيف فيه كل ما احتاج: الرغيف الطويل اللذيذ.. وفيه قطعة اللحم والصلطة والفاكهة..

وكلما سألنى أحد القادمين من مصر عن المطاعم الرخيصة ذكرت له اسم هذا المطعم.. وكنا نلتقى كثيرا ونذهب إلى هناك ونتناقش فى كل شيء من قضايا الأدب والفلسفة.. وكنا نتبارى فيما لدينا من معلومات عن أى شيء.. وبعضنا كان يهتم بأخبار مصر والملك فاروق، وكان وقتها يتمدد على شواطئ دوفيل بشمال فرنسا.. وكيف إن العلم المصرى كان مرفوعا على الفندق الذى تنزل فيه الراقصة المصرية سامية جمال.. وكيف إن الصحف كانت تطلق عليها اسم «راقصة مصر الرسمية»..

وما الذى خسره الملك فاروق فى القمار، وكم زجاجة شمبانيا شربها فى الليلة السابقة.. ولا أظن أننى كنت مشغولا بذلك.

ثم يجئ من يقول لنا إنه رأى الفيلسوف الوجودى جان بول سارتر ورفيقته الأديبة سيمون دى بوفوار.. وإن سارتر قصير القامة جدا. وإنه أحول. بل إن سيمون دى بوفوار هى التى تسحبه لكى يتمكن من المشى.. وإنه اقترب منه فوجد أنه قبيح الشكل، أقبح من سقراط.. وصوته غليظ وليس جميلا.. وإنه فى دهشة من أن هذا الرجل العظيم الذى يكتب الروائع فى الفلسفة والأدب، لا يفيق من الخمر.. كيف؟

وكنت مأخوذا بالفلسفة الوجودية. وقد تخصصت فيها وقررت بينى وبين نفسى أننى عندما أعود إلى القاهرة سوف أكتب عن الوجودية كما لم يستطع أحد. فسوف أجعلها سهلة فى متناول الناس.. أستطيع ذلك. وعلى يقين تماما. ولكنى أريد امتلىء بباريس.. أريد أن أشحن خيالى وطاقتى بكل ما هو فى باريس: المتاحف والمكتبات والكباريهات والشوارع والشوارع والشوارع والمقاهى..

ولا أظن أننى كنت أعرف ملامح المطعم الذى اعتدت أن أتناول فيه الطعام. فأنا أراه من بعيد. واتجه إليه. وأعرف الجرسون.. ودون تفكير منه أو منى يجئ الطعام.. ويختفى الطعام.. وأدفع وأخرج.. واتجه إلى المترو وإلى الفندق. ومن الفندق أخرج ومعى بعض ملابسى إلى الحمام العمومى. استحم هناك. ثم أعود لأنام فى الفندق استعدادا لليل طويل.. وكل الليالى طويلة!

وفى يوم كانت السماء تمطر. وكنت نسيت البالطو.. ومشيت على جانب من الشارع اختبئ من المطر. وتشاء الصدفة أن ترتطم يدى بأحد المشاة وأعتذر له وأفاجأ بأنه د. لويس عوض. وكان أستاذى فى كلية

الآداب. مدرس الأدب الانجليزى والنقد. وكثيرا ما كان ينتقد الفلسفة الوجودية التى آمنت بها. ولم أكن أعجب بنقده. فهو مادى وليس مثاليا - وقد كنت رومانسيا مثاليا وجوديا.

- أهلا يا دكتور. منذ متى جئت؟

- الآن حالا..

- فى أى الفنادق..

- دلهى..

- إنه نفس الفندق الذى أنزل به.. أنت تعرف أنه لا يوجد بالغرف حمامات..

- ولكن لن أبقى طويلا.. أين تتناول عشاءك الرخيص؟.

قلت: أنت ضيفى يا دكتور..

واتجهنا إلى المترو.. إلى المطعم.. وتقدمت د. لويس عوض.. وطلبت من الجرسون أن يعد عشاء لاثنين..

وجلست فى انتظار د. لويس عوض الذى وقف يقرأ قائمة الطعام التى تعلقت وراء زجاج الباب الخارجى.. وهذا ما لم أفعله قط..

ثم وجدت د. لويس عوض متجها ناحيتى بين الضحك والغضب أو الاستياء والاستخفاف: ما هذا؟

قلت: ماذا؟

- هل تعرف أى لحم هنا؟

- لماذا؟

ـ إنهم يبيعون لحم الخيل!

ودون أن يدرك د. لويس عوض ما الذى أغمده فى بطنى مضى يقول: ومن يدرى ربما لحم حمير أو بغال!

وسألنى: كم يوما تأكل هنا.

قلت: ويدى على بطنى: منذ خمسين يوما..

وضحك قائلا: لقد ابتلعت حمارا على الأقل!

واتجهنا إلى خارج المطعم. ولم استطع أن أذوق طعاما خمسين يوما أخرى!

* * *

٥

الأستاذ محمد أحمد النعمان نائب رئيس جمهورية اليمن، صديق قديم. وهو زعيم سياسى داهية. ومن أخف الناس دما. وأمتعهم سخرية.

كان يتردد على مكتبى فى «أخبار اليوم» فى الستينات.. وكان ينتقد الأوضاع السياسية فى اليمن. وكلما تحدثت إليه فى شىء قال: قال شاعرنا الزبيرى..

ثم يلقى أبياتا من الشعر الجميل..

وظننت أن الزبيرى هذا اسم وهمى.. وكان يضحك لذلك..

وفى يوم زارنى ومعه يمنى آخر يرتدى العمامة والقفطان ولا يضع الخنجر التقليدى فى حزامه: هذا هو الشاعر الزبيرى. لقد ظننته من اختراعى!

وعندما ذهبنا إلى «مؤتمر الأدباء» فى سوريا، حذره المرحوم يوسف السباعى رئيس الوفد المصرى أن يسخر من الامام أحمد ملك اليمن.. ولكنه كان يفعل كلما اتيحت له فرصة. بل لم يكن ينتظر الفرصة حتى تتاح له، كان يخترعها ويختطفها، ومن كلماته الجميلة الباقية: هناك نوعان من الشعر فى اليمن: شعر فى مدح الامام وشعر فى رجاء عفوه!

أو كان يقول: كان فى اليمن خمسة من القراء، قتل الامام أربعة، فلم يبق سواى!

وعندما أصبح المشير عبد الله السلال رئيسا للجمهورية اختلف معه الأستاذ النعمان. وفى يوم استدعاه الرئيس جمال عبد الناصر وقدم لــه علبة شيكولاته. وقال له : اختر لك واحدة.. ثم اقــرأ الــورقة لتعــرف ما الذى تقوله عنك..

فاختار النعمان واحدة وفتحها وقرأ الورقة وضحك ثم اعطاها للرئيس جمال عبد الناصر. لقد كانت تقول : عدو عاقل خير من صديق جاهل !

واختار الرئيس عبد الناصر واحدة وقرأ الورقة التى تقول ليضــحك الاثنان معا : اتق شر من أحسنت إليه !

ثم وضع الرئيس عبد الناصر الأستاذ النعمان وعددا من زعماء اليمن فى السجن. ولم يعرف هؤلاء الزعماء، أنهــم مســجونون فى زنــزانات متجاورة.. وخرج الأستاذ النعمان من السجن ينظم الشــعر ونــظم أول وآخر قصيدة فى حياته هجاء عنيفا لجمال عبد الناصر..

وكان الجلوس إلى الأستاذ النعمان متعة عقلية.. فهو يحفظ التــاريخ والقرآن والشعر الساخر. ويستخرج النكتة فى أحلك المواقف السياسية..

وفى يوم وفى ساعة مبكرة جدا كلمنى تليفونيا صارخا : يا أخى.. يــا أخى هل قرأت الصحف ؟

قلت : ليس بعد..

قال : أنا قرأتها.. إن الصحف جميعها قد نشرت صورا وعناوين ملونة تتحدث عن «القمر» الروسى الذى يحمل فى داخله كلبة. بينمــا الامــام أحمد قد أرسل ابنه «البدر» إلى لندن ومعه هدية من الخيول إلى ملكة بريطانيا فلم تنشروا عنه سطرا واحدا !

منتهى الذكاء والبراعة والسخرية..!

وعلمت أن هذه النكتة قد بلغت الامام أحمد. فأصدر تعليماته إلى ابنه الأمير البدر أن يأتى بالنعمان فى السلاسل.. لكى يفتح بطنه ويضعه على ظهر حصان يتفرج عليه الناس فى صنعاء!

وبعد ذلك بعشر سنوات سافرت إلى موسكو.. وقابلنى عدد من اليمنيين من أتباع النعمان.. وعاتبونى بشدة كيف إننى أسخر من الأستاذ النعمان فى مقالاتى. والحقيقة أننى أداعبه فقط..

ثم قدموا لى صورة لم تنشر للأمير البدر والخيول التى رافقته إلى لندن.. ثم صورة للقمر الصناعى الروسى والكلبة لايكا منشورة فى إحدى المجلات الجامعية..

ثم صورة لخبر نشرته إحدى الصحف البريطانية يقول: إن خيول الامام أحمد قد أعدمت رميا بالرصاص فى بريطانيا فور وصولها. فلم تكن معها شهادة طبية بسلامتها! وهذا يخالف القانون البريطانى، الذى لا يعرف المجاملة أو الرحمة.. فالحصان والكلب من أهم وأحب الكائنات فى بريطانيا!

وقال هؤلاء اليمنيون: إن جمعيات الرفق بالحيوان التى هاجمت روسيا لأنها وضعت كلبة فى الفضاء الخارجى وتركتها تموت، لم تهاجم بريطانيا التى اغتالت ثلاثة من الخيول دون رحمة.. مع أن لايكا ماتت فداء للبشرية!

٦

فى ميدان سليمان باشا بالقاهرة، توقف المرور، وتجمع الناس حول رجل له لحية. ويتكلم اللغة العربية بصعوبة. ولكنه، رغم الغضب واضطرابه والكلمات فى فمه يقول: البوليس.. لابد من البوليس!

والناس حوله يقولون: وأنت مالك يا خواجة.. واحد يضرب حصانه.. أنت ما دخلك؟

ـ يا خواجة.. يا مستر.. لما قلبك رحيم كده.. لماذا ظل الاحتلال البريطانى مائة سنة فى مصر، ولماذا كانت حوادث دنشواى؟!..

ـ يا سلام على الرحمة التى فى قلوب الانجليز. لقد نسوا ما فعلوه فى دنشواى.. أنت مالك يا خواجة!

وكان هذا الخواجة هو مستر دافين، رئيس قسم اللغة الانجليزية فى كلية آداب القاهرة. أعرفه جيدا. لقد كان مدرسا لنا. وهو أعرج. ولكنه يمشى بسرعة وهو يتكىء على إحدى ساقيه.. وعندما كنا نراه من بعيد قادما علينا، نسبقه إلى المدرجات، فمن عادته إذا دخل المدرج ألا يسمح لأحد بالدخول بعده!

وكان عنيفا. وكان أصوليا جادا.. وكان ينتقد المصريين كثيرا. ويرى أننا غير جادين فى الدراسة وفى الفهم وفى خدمة بلدنا.. وأنه إذا كانت هذه صفات كل هذا الجيل، فلا أمل فينا.. وأن الأجيال التى سبقت والتى ذاقت العصا والكرباج فى الكتاب أفضل منا كثيرا. ولذلك فكل

معالم العصر الحديث، قد تحددت لنا وقبلنا..

وفى ذلك اليوم. اقتربت من مستر دافيز. إنه لا يعرفنى فأنا لست إلا واحدا من مئات. ووجدت أنه يمسك بعنق حصان معلق فى عربة حنطور. ويصر على أن يذهب بالحصان والحنطور والعربجى إلى القسم. واقترب أحد رجال المرور ولم يفهم. واقترب جندى آخر ولم يفهم إلا أن هـذا الخواجة قد رأى العربجى يضرب الحصان بعنف.. وأن هذه القسوة فى معاملة الحصان يجب أن يعاقب عليها العربجى.

وجاء أحد الضباط وأمكنه أن يتفاهم مع مستر دافيز. وأمام إصراره وخجل الضابط من أن يبدو مهملا، أو تكون مصر كلها مهملة فى حق هذا الحيوان المسكين قال له: سوف أذهب معك إلى القسم. حاضر.

ثم اتجه إلى الناس يأمرهم بأن يتفرقوا. وحاول بشدة. وتفرق الناس. ولا يزال الخواجة ممسكا بلجام الحصان. ولا يزال ينظر إلى العـربجى بقسوة واحتقار ويتوعده بالسجن والغرامة.. واقتربت من الضابط أقـول له: إننى واحد من تلامذته.

فقال لى: إذن فقل له ينطلق لحال سبيله، وإننى سوف أتكفل بعقاب هذا العربجى.. وهذا وعد منى!

واقتربت من مستر دافيز وقلت: إنه سوف يفعل كل ما تريد. ويطلب إليك أن تذهب أنت لحالك.. إننى واحد من تلامذتك..

قال دافيز: هل أنت واثق مما قاله لك.

قلت: تماما.

قال: أترك لك هذه المسئولية.. ولابد من معـاقبة هـذا العـربجى

المتوحش.. لقد ضرب الحصان على رأسه. هنا (وراح يشير إلى مكان الضرب).. وعلى عينه (وأشار إلى مكان الضرب).. ثم ركله فى بطنه (وأشار إلى المكان) ولم يكن هناك أى سبب.. فلم يكن معه زبون.. ولا عنده مشوار.. إنه متوحش..

وانصرف مستر دافيز بعد أن تأكد أن الرجل سوف يلقى ما يستحقه من عقاب!

وعلى جانب من الشارع وقف الضابط يقول لى: إننى كنت أظن أن هذا يحدث فى الأفلام.. ولكن الخواجة قد أمسك بالحصان وبالعربجى بمنتهى القوة.. إنهم يعرفون الرحمة!

ولم يقل الضابط للعربجى كلمة واحدة.. وإنما تركه هو الآخر يستأنف عمله اليومى!

وأمسك العربجى الكرباج وراح ينهال ضربا على الحصان وهو يقول كويس كده.. جايب لنا الكلام والبهدلة..!

ووضعت يدى على الجانب الأيسر من معدتى.. إنه تقلص فى المصران الغليظ!



٧

قرأت قصة للأديب العظيم تولستوى عن عادات الرعاة فى بلاد القوقاز القديمة.. فقد كان من عاداتهم أن يوزعوا الأرض الواسعة بينهم استنادا إلى قاعدة بسيطة جدا: كل إنسان يركب حصانه وينطلق من شروق الشمس بالسرعة التى تعجبه.. بشرط أن يعود إلى نفس المكان قبل غروب الشمس..

فكل الأرض التى مر بها ذهابا وإيابا هى ملك له!

أما الشرط فهو أن يعود بنفس الحصان، قبل الغروب، إلى نقطة البداية.

ولكن الذى يحدث عادة أن كل صاحب حصان ينطلق بأقصى سرعة لكى يحصل على أوسع أرض.. وعندما يحاول العودة، يكون الحصان قد أرهق تماما فيسقط ميتا، أو يعود بعد الغروب!

* * *

وفى مثل هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى!

أما المعنى: فهى أن الطمع يعمى الناس ويفقدهم توازنهم وعقولهم.. ويجعلهم ينسون مبادئ علم الحساب.. ولذلك فالذين يفوزون بالأرض هم الذين لا يفرحون بما قطعوه حتى منتصف الطريق، وإنما الذين يدخرون راحة الحصان إلى طريق العودة!

٨

بعد لقاء الرئيس السادات فى القناطر الخيرية همس الجنرال بارليف فى أذنى قائلا: أريد أن أرى خيولا عربية..

فقلت: دعنى أتحدث إلى المهندس سيد مرعى، لأرى إن كان ذلك ممكنا.

ثم ذهبنا للقاء السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية فى قصر الطاهرة. وعندما كان شمعون بيرز وابا ابيان منهمكين فى الحديث إلى السيد حسنى مبارك مال حاييم بارليف صاحب الخط الدفاعى المشهور ناحيتى قائلا: ماذا فعلت؟

قلت: سوف نذهب مباشرة إلى مزارع سيد مرعى. إنه فى انتظارنا.

وحاييم بارليف هذا رجل متوسط القامة. رشيق. شديد الاحمرار هادئ الأعصاب جدا. يتكلم كأنه يملى عليك. ولا يتحدث لا فى الحرب ولا فى السياسة. لقد ترك ذلك لشمعون بيريز زعيم حزب العمل..

وذهبنا إلى مزرعة سيد مرعى. وكان فى انتظارنا هناك. ولابد أن سيد مرعى قد اندهش أن يكون بارليف صاحب الاستحكامات المخيفة، هكذا لا يخيف أحدا. بل لا شىء يدل على أنه عسكرى أو على أنه من كبار المخططين للعسكرية الاسرائيلية.. وبسرعة تعارف الرجلان. فما اجتمع سيد مرعى مع أحد إلا كان الحصان ثالثهما.. وبارليف رئيس اتحاد الخيول فى إسرائيل. ولديه معلومات وفيرة ودقيقة.. ويريد أن يرى أجمل

الخيول : الخيول العربية..

وخرجت الخيول ذكورا واناثا صغارا وكبارا. والرجل مبهور سعيد بما رأى.. ثم هو يتلمس رءوسها وأعناقها.

وأخيرا ظهرت مهرة حامل. قال سيد مرعى : ربما تلد اليوم أو غدا..

ثم ضحك وقال : إن ولدت ذكرا سوف أطلق عليه اسم بارليف.. وإن ولدت أنثى فسوف أطلق عليها اسم أنيسة !

وبعد أسبوع اتصلت بى السيدة الفاضلة حرم المهندس سيد مرعى لتقول : مبروك..

قلت : الله يبارك فيك..

قالت : أنيسة !

قال لى سيد مرعى : لقد كنت أدعو الله ألا يكون ذكرا فأجدنى مضطرا إلى أن يكون اسمه بارليف.. فليس هذا بالأمر السهل على النفس.. مهما كان السلام الذى بيننا !

واتصلت بحاييم بارليف فى بيته فى تل أبيب قائلا : مبروك..

قال :.. بارليف ؟

قلت : إن مصر لا تطيق أكثر من بارليف ! لقد ولدت المهرة : أنيسة !

وذهبت لأرى أنيسة.. ووجدت أن لها علامة بيضاء فى جبهتها..

وضحك سيد مرعى وهو ينظر إلى شعرى الأبيض وقال : بنت حلال !

٩

كلما نظرت إلى الصورة قلت فى نفسى: لقد كان فرويد علــى حــق.. فالانفعالات العنيفة تجعل الانسان حيوانا أو قريبا مــن ذلك.. أو أنهــا تعيدنا إلى الطفولة أو على مقربة منهــا.. فــالغضب يجعلنــا نصرخ.. والحزن يجعلنا نبكى.. والفرح يجعلنا نقفز.. تماما كأننا أطفال.. ثم إن الرجل طفل كبير!

أما الصورة فهى لسيدة جميلة تركب عربة وفى يدها كربــاج.. وقــد تعلق من العربة ليسحبها إلى الامام ثلاثة عباقرة:

العالم النفسى الكبير فرويد..

والفيلسوف العظيم نيتشة..

والشاعر العميق ريلكة..

الأول نمساوى والثانى ألمانى والثالث أيضا.

وقد أحبوا امرأة واحدة. إنها لواندرياس سالومى.. أجمــل وأجــرأ امرأة فى ذلك الوقت.. وكانت قد تزوجت دبلوماسيا بريطانيا..

ثم وقع فرويد فى غرامها، ولم ينقذه من هذا الحب كل ما قاله عــن الحب والجنس..

وأحبها الفيلسوف نيتشة رغم كراهيته لليهود.. بل إن كراهيته لليهود قد زادت بسبب سالومى هذه التى لعبت به وسخرت من عواطفه..

ثم الشاعر رينر ماريا ريكله.. قد أحبها وترك من أجلها أجمل الجميلات.. وعندما أحب ريكلة فتاة مصرية جميلة اسمها «نعمات علوى» كان السبب الحقيقى هو أن الفتاة المصرية كانت لها كل ملامح سالومى: الوجه الرقيق الشاحب الفاتن والعينان الواسعتان والشفتان المتقدتان والقوام الشاب والصوت الأجش..

وتحت هذه الصورة جاءت عبارة برنارد شو الساخرة:

استطاعت هذه المرأة أن تجعل من ثلاثة خيول ثلاثة حمير سعداء بذلك!

١٠

أما أشهر الخيول فى التاريخ فهى:

البراق: وهو الحصان الصغير الذى ركبه النبى عليه السلام ليلة المعراج. وسعى بين المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى..

ويسمى البراق لأنه سريع كالبرق، أو لأنه شديد البياض..

وكانت للرسول عليه السلام خيول معروفة:

كان له حصان اسمه الضرس ولكن الرسول اختار له اسم: السكب. وكان له حصان ثان اسمه: الورد.

وثالث اسمه: لزاز.. وقد جاءه هدية من المقوقس رئيس الأقباط فى مصر..

وحصان رابع اسمه: اللحيف بالحاء أو بالخاء..

وحصان خامس اسمه: اليعسوب..

وبوسيالوف حصان الاسكندر الأكبر الذى لم يكن من السهل على أحد أن يركبه. ولكن الاسكندر اتجه به فى مواجهة الشمس.. فلما سقطت أشعة الشمس على عينى الحصان أمكن أن ينطلق به. ولم يكن فى استطاعة أحد غير الاسكندر أن يركبه..

وقد بنى الاسكندر مدينة تخليدا لذكرى الحصان اسمها بوسيفا سنة ٣٢٦ قبل الميلاد..

وبجاسوس: اسم الحصان الذى استخدمه الأمريكان فى الحرب الكورية وكان ينقل الرسائل تحت القنابل.. وقد رقى إلى رتبة الشاويش، ثم أنعمَ عليه بوسام الشجاعة..

حصان طروادة: حصان من خشب صنعه الاغريق وأخفوا جنودهم فى داخله. ثم أفلحوا فى أن ينقلوه إلى داخل حصون مدينة طروادة ـ ثم انفتح الحصان عن هذه القوة الخفية التى استولت على الحصن. فانتصر الاغريق فى حرب طروادة سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد..

وانكتالوش: هو حصان الامبراطور كاليجولا. وقد عينه حاكما وكاهنا لأحد الأقاليم فى سنة ٤٠ م. وكان يقدم له النبيذ فى اناء من الذهب؟!

وهانس الذكى: حصان عاش ومات فى نهاية القرن التاسع وكان يستطيع أن يقوم باجراء عمليات حسابية برجليه الاماميتين.. إذ يكفى أن تدق له الأرقام على الأرض فيسمعها ويرد عليها بأن يدق الأرض بساقيه الاماميتين!

أما الحصان الذى ركبه القائد الانجليزى ولنجتون فى معركة ووترلو سنة ١٨٣١ فاسمه: كوبنهاجن..

والحصان الذى ركبه نابليون فى نفس المعركة كان اسمه مارنجو..

١١

والحصان واحد من الحيوانات والحشرات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم : النمل والنحل والعنكبوت والحمار والهدهد والغراب والذئب والبقر والبغال والفيل والنعجة والبعوض والمعز و «النون» ـ أى الحوت..

١٢

لا أحد عرف متى ظهرت «حدوة الحصان» فى التاريخ.

ولكن من المؤكد أنها لم تظهر فى آسيا أو فى أفريقيا.. فقد عرفت هذه المناطق كل آباء الخيول الحالية.. وكانت الخيول وحشية تنطلق فى المراعى..

واستطاع الانسان فى الصين أن يستأنس الخيول وأن يستخدمها فى الركوب..

وباستخدام الخيول فى الركوب اتسع العالم أمام الانسان.. وتقاربت أطرافه وتحركت القبائل المهاجرة من دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة. وظهرت عربات الخيول. والمركبات الحربية..

وعرف العالم طريق البريد بين بلاد فارس وبين تركيا. وكان يعرف بالطريق السلطانى وطوله ١٩٠٠ كيلو متر تقطعه الخيول فى عشرة أيام. وكانوا يستبدلون الخيول كل عشرين كيلو مترا..

وقد عرف الانسان أن الخيول تتعب عندما تتآكل حوافرها أيضا. ولذلك ظهرت حدوة الحصان فى أوروبا بين القبائل الرومانية التى تفوقت فى صناعة الحديد..

ومثل حدوة الحصان استخدموا ما يشبه الجوارب التى يضعونها فى حوافر الخيل. ولكن الحدوة هى أهمها وأقواها..

وانتقلت الحدوة من حوافر الخيل إلى مداخل البيوت.. رمزا للخير..

فقد كانت الخيل تعنى: الخير أيضا.

أما أسباب تعليق حدوة الحصان فلأن الحديد يمنع الحسد فى اعتقاد كل الشعوب.

وفى الشرق جعلوا الحدوة من الخرز الأزرق.. لأن الخرز الأزرق أيضا يمنع الحسد..

وعلى أبواب كثير من البيوت الأوروبية تجد حدوة الحصان، وتجدها أيضا معلقة فى أعناق النساء..

١٣

وحب الانسان للحيوانات قديم..

وكثير من الحيوانات استأنسها الانسان وجعلها تعيش معه فى بيته وفى فراشه.. أو جعلها تأكل معه ومن يده وعلى مائدته..

وأكثر هذه الحيوانات جاذبية هى : الكلاب والقطط والنسانيس والطيور والأسماك والدرافيل والدببة..

وفى اليابان يفضل الأطفال تربية الفئران وتدريبها على الرقص عند سماع الموسيقى.

وفى المكسيك يفضل الأطفال تربية الصراصير..

وربما كان تفضيل الناس للكلاب على القطط هو أن الكلاب ترتبط بصاحبها وتعتمد عليه وتطيعه. بينما القطط لا تفعل ذلك..

والفراعنة أحبوا القطط وعبدوها.. وكذلك القرود..

والرومان كانوا يفضلون الخيول، وكانوا يدربون القردة على قيادة العربات التى تجرها الكلاب.. وكانوا يحتفظون بالحيوانات المتوحشة من كل نوع .. وكانت رياضتهم المعروفة إطلاق الحيوانات المفترسة على المجرمين على مشهد من الشعب..

وكان الامبراطور كاركالا قد درب أسدا على أن ينام تحت قدميه، وأن يجلس معه على المائدة..

وأكثر العظماء والقادة فى التاريخ يحبون الكلاب..

وأشهرهم الرئيس واشنطون والرئيس روزفلت والمستشار الألمانى بسمارك والمكتشف بيرد الذى أخذ كلبه إلى القطب الجنوبى..

وكذلك الشاعرة براوننج..

وكان لتشرشل كلب اسمه «روميل» سخرية من القائدة الألمانى الشهير بثعلب الصحراء. أرفين روميل..

وكاتبنا الكبير د. حسين فوزى كان يقتنى عشرات القطط فى بيته..

والأستاذ العقاد كان يحب الكلاب.. وله قصائد فى وصف ورثاء الكلب «بيجو»..

ديك في بيتي !

١

كنا نسكن ق شارع بالقرب من السكة الحديد ق مدينة طنطا. ولم تطل إقامتنا أكثر من سنة. وكان الشارع ضيقا قذرا. ولكن كانت به بعض المعالم التى لم أنسها.. مثلا عند نهاية الشارع رجل يبيع الحلوى. رجل كأى رجل. ولكن كان يعاملنى معاملة خاصة. فقد كان صديقا لوالدى، ومن حين إلى حين يحملنى كيسا صغيرا به بعض الحبوب. وكان والدى ينتظر ذلك. ويسعد به تماما. وكثيرا ما كان يكافئنى على ذلك بقروش. هذه القروش أشترى بها الحلوى من هذا الرجل.

وفى ذلك الوقت كنت أكتب على الجدران. وكان خطى جميلا ـ وهو الآن ليس كذلك. وكان من عاداتنا ق ذلك الوقت أن نكتب الآيات القرآنية بالعوسى، فتتكون حروف مفرغة ثم نضع تحتها ورق الشيكولاته المفضض والأحمر والأصفر.. وكنت أفعل ذلك وأعطى لبائع الحلوى هذه «الأعمال الفنية» مقابل المزيد من الحلوى. ولم يكن الرجل يتردد.

وعند نهاية الشارع من الناحية الأخرى توجد عدة بيوت يتهامس الناس إذا اقتربوا منها. وبعض الآباء ينصحون أولادهم بالابتعاد عنها. ولكن الرجال يقتربون منها ويتوقفون ويضحكون ويتغامزون. ويفعلون ذلك ق الليل..

وفى إحدى الليالى تسللت لكى أرى. لم أفهم. لقد وجدت بيوتا مظلمة إلا من مصباح. جلست إلى جواره سيدة بدينة. وقد وضعت ساقا على

ساق. ووضعت المصباح أمامها بحيث تبدو ساقاها تماما لمن يقف أمام الباب. ولم أفهم معنى ذلك. وعندما ذهبت إلى والدتى أحكى لها نهرتنى بعنف. وأقسمت لها ألا أعود إلى ذلك ثانية.. ولكنى لم أفهم.

وزارنا أحد أقاربى وكان يكبرنى بعشر سنوات. وهو موظف فى السكة الحديد واستدرجته إلى هذا المكان. وأدهشه أننى أعرف مثل هذه الأمكنة. وسألنى إن كنت أحب أن أرى بنفسى، فترددت وخفت. ولكن لم أقاوم الرغبة فى أن أذهب..

هو تقدم وأنا وراءه. وأقبلت عليه الفتيات يصافحنه ويضربنه ويقرصنه فى أماكن مختلفة من جسمه.. ثم نظرن إلى وهن يقلن: وبسلامته لماذا؟

واحدة قالت: بسلامته لكى يحرس الملابس!

وواحدة ثانية قالت: حرام عليك.. لا تغضبى الطفل.. سوف يجئ إليك فى العام القادم!

وقالت ثالثة: وانت اسم الله عليك تريد رضعة!

وفجأة، وجدت ثلاث فتيأت خلعن ملابسهن تماما..

وأظن أننى هربت من المكان. ولم أستطع أن أفتح عينى فى عينى أمى. ولا تناولت طعاما. ولا نمت فى ذلك اليوم.

وبعدها بشهر كنت أخرج من المدرسة فوجدت فتاة صغيرة فى مثل سنى تقول لى: أنت هربت إلى أين؟

فقلت: متى؟

– يوم كنت عندنا فى البيت.

– أى بيت؟

– مع الشاب قريبك.. أنت تضايقت عندما وجدت أخواتى البنات خلعن ملابسهن.. أنا لا أحب ذلك. وأريد أن أهرب من البيت.. ولكنى لا استطيع وأمى تضربنى.. لقد خرجت وراءك.. ورحت أناديك ولكنك لم ترد.. تعال نهرب معا إلى أى مكان..

ثم كشفت عن كتفها وظهرها ووجدت أثرا داميا لأسنان أمها وأخواتها البنات..

إنهن يرغمنها على أن تكون مثلهن وهى فى الحادية عشرة من عمرها..

ثم قالت: معك قرش؟

قلت: لا.. لماذا؟

قالت: لأن أمى سوف تسألنى إن كنت قد قابلتك.. وأنا أخشى أن يكون أحد رآنا الآن.. فإذا عدت فسوف تسألنى عن الثمن!

– ثمن ماذا؟

– أنت لا تفهم شيئا.. تعال نهرب معا!

وفى يوم سألنى والدى إن كنت قد ذهبت لبائع الحلوى.

فقلت: نعم.

– لم يقل لك شيئا.؟

ـ لا..

ـ على كل حال إذا وجدت الرجل الذى له شارب ويصبغ شعره أحمر فلا تتحدث معه..

ـ حاضر..

ـ إنه رجل سيئ جدا.. إنه يسكن فى ذلك البيت..

وأشار بيده إلى البيت الذى ينظر إليه الناس باحتقار ثم لا يـذكرون اسمه..

ثم قال: لولا الحاج عبد الرحيم بائع الحلويات ما كنت تحدثت إليـه قط.. إياك أن تلعب مع ابنته!

قلت: لا أعرف ابنته.

قال: تلك التى وقفت تتحدث إليك أمام المدرسة.. لقد رأيتكما معا.. وأنا متأكد أنك حسن النية.. فأنت لا تعرف من هى ولا من هى أمهـا ولا من هو أبوها..

وعرفت ما الذى يجمع بين الحاج عبد الرحيم وهذا الرجل ووالدى.

فهم يذهبون مرة كل أسبوع إلى منطقة الشيخة صـباح فى مـدينة طنطا. وغالبا يكون ذلك عند العصر. ويكون والدى قد حمل على صـدره ديكا هنديا اسمه: برغوت.. إنه ديك كبير الحجم طويل عـريض. ولـه قفص بالقرب من الباب. وهو يلقى عناية شديدة من والدى. فهو يطعمه اللحم النىء والبيض. ثم يقوم بتنظيف رجليه ومنقاره. ويمسك المبـرد والصنفرة ويعالج بهما أصبعه الطويلة. وكان والدى يجعلها ناعمة حادة. وكان يستخدم بعض الزيوت.. وكثيرا ما كان والدى عند صلاته للفجـر.

يفتح القفص ويخرج «برغوت» ويظل يـلاعبه ويقبلــه.. ثــم يتحسس رجليه.. وأصبعه الطويلة الحادة.. ثم كان يضعه أمــام القفص ويــأتى بقماش لونه أحمر.. ثم يكومه.. ويحركه أمام الديك.. فكان الديك ينكش شعر رأسه.. ثم يقفز يضرب القماش الأحمر بمنقاره، ثم برجليه.. وكان والدى يكرر ذلك أكثر من مرة..

وأتذكر أنه قد وقعت خلافات بين والدتى ووالدى بسبب هذا الديك. وكانت هذه الخلافات فى الليل. عندما يأوى والدى إلــى الفــراش.. وفى بعض الأحيان كنت أظل جالسا فى الفراش حتى الصباح.. فالكلام بيــن والدي ووالدتى حاد.. ولكنه بصوت منخفض.. فوالدي يقــول لــوالدتى دائما: لا ترفعى صوتك والولد نائم.. إننا نريده أن ينجح.. منذ يــومين وجدت دموعه على خده.. لأننا كنا نتناقش فى نفس الموضوع؟

وفى ليلة لاحظت أن والدى عاد متــأخرا.. ووضــع شــيئا فى قفص الديك.. ثم مشى على أطراف أصابعه لينام.. ولكن والدتى لم تكن قــد نامت بعد.. ولم يكن فى الامكان أن يخفض أحدهما صوته.. فقد كنــت أذاكر ودار الحديث هكذا:

ـ أنا يا الديك فى هذا البيت.

ـ أنا والديك نترك هذا البيت..

وانتهى النقاش عند هذا الحد. وراحت أمى تسعل. ولــم يــكن ذلك تصنعا أو إثارة للشفقة أو تحويلا لمسار الاهتمام، بــل هــى مــريضة مرهقة. فى شغل البيت وفى تنظيف قفص الديك..

وعندما نام والدى جمعت أوراقى وبعض ملابسى وقــررت أن أتــرك البيت. وخطر لى أن أبحث عن تلك الفتاة.. وأسألها إن كانت جــادة فى

رغبتها فى الهرب.. واتجهت إلى البيت فعلا، وهناك وجدت ثلاثة من رجال الشرطة خارجين. ولم يكد واحد منهم يرانى حتى قال: يا خبر.. يا ناس.. القيامة سوف تقوم.. إلى أين يا ابنى.. ألست ابن الرجل الطيب «.....»؟ صحيح يخلق من ظهر العالم طفلا فاسدا..

وعدت إلى البيت لأجد أمى واقفة أمام الباب..

قالت: لم تجد أحدا تذاكر معه يا ابنى.؟

قلت: لم أجد أحدا..

قالت: تعال معى إلى بيت جدك.. لن نمكث فى هذا البيت.. أنا تعبت يا ابنى.. تعبت.. إن والدك رجل طيب مؤمن.. ولكن الديك.. ورائحته وتكاليف طعامه.. أنت صغير.. أنت لا تعرف يا ولدى!

❋ ❋ ❋

وفى أحد الأيام طلبت من والدى أن أتفرج على الديوك.. على «صراع الديوك».. وفرح أبى. وحاولت أن أحمل عنه الديك.. فحذرنى أبى من ذلك. فالديك لا يعرف إلا شخصا واحدا. هو والدى. ولا يأكل إلا من يده.. ولا يهدأ إلا إذا داعبه.. ولما حاولت كاد الديك يقلع إحدى عينى بمنقاره الذى أخطأنى..

أما المكان فهو فى الجانب الآخر من المدينة.. ولما اقتربنا من البيت.. كان الناس ينظرون إلى والدى والديك الذى معه ويقولون: إن شاء الله تكون شديدا يا عم محمد..

وكان والدى يضحك واثقا ويقول: شديد جدا.. سوف نقتل الاكسبريس..

«والاكسبريس» هو اسم الديك الآخر الذى سوف ينازله «بـرغوت» وقد دربه والدى تدريبا عنيفا دمويا. فلم يبق إلا هذا اللقاء..

وأمام البيت وجدت عددا من الرجال قد جلسوا على المقـاعد، وكل واحد قد وضع ديكا على حجره.. بعض هذه الديوك أكبر من بـرغوت.. وبعضها أصغر.. وكل رجل قد وضع أصابعه على الأصابع المدببة للديك يتلمسها.. وفى نفس الوقت يحاول استفزاز الديك.. ولذلك كانـت هـذه الديوك فى حالة تحفز.. إنها تنكش ريشها وتستقيم أعناقها وتكون مثـل حربة.. أو مثل صاروخ.. يهتز ويحاول أن يتجه إلى هدف قريب..

وفجأة توقف والدى وراح ينظر إلى برغوت.. ثم وضع أذنه على قلبه وقال: مالك؟ أنت خائف.. عيب يا برغوت.. لا تخف..

وناولنى الديك الذى استسلم تماما.. ويبدو أنه لم يكد يرى الـديوك الأخرى حتى تولاه الفزع.. وأخرج والدى شيئا من جيبه ثـم أعـطاه للديك.. ويبدو أنه أعطاه قليلا من السكر.. سكر قصب لونه بنى.. وهـو ما كان يبعث به الحاج عبد الرحيم لوالدى..

ودخلنا البيت..

وتقدم رجلان كل واحد منهما أمسـك ديـكا.. وجلس الـرجلان فى ناحيتين متقابلتين. ثم أخذ كل منهما يثير الديك الذى فى يده. وفجـأة ترك كل منهما الديك.. واندفع الديكان يتصارعان بالمناقير وبـالأرجل.. وكل منهما قد نشر جناحيه.. وقفز أحد الديكين فوق الآخر وراح ينقـره ويسيل دمه.. وامتدت الأيدى تنقذ الديك الجريح.. وانتهت المباراة بفوز أحدهما.

والناس يقولون: عظمة.. إنه يأكل الضانى.. إنه يأكل الكبدة.. إنه لم

ير النور قط.. يعيش فى الظلام انتظارا لهذه اللحظة.. مبروك يا أبو إسماعيل.. العاقبة عند قرن العفريت !

وقرن العفريت هو ديك آخر.. أسود اللون وله عينان سودوان وعلامة بيضاء فى رأسه.. وهو لا يأكل إلا الثعابين ـ هكذا قالوا..

لا أعرف كيف أصف شعورى. فلم أتمكن من رؤية ما حدث بصورة خاطفة.. فقد بدأ كل شىء وانتهى بسرعة.. واقتربت من الديوك. وجلست أرضا. وجاء من دفعنى إلى الوراء. فجلست وأسندت ظهرى للحائط. وتقدم ديكان آخران.. وتضارب الديكان، فقد قفز كل منهما فى اتجاه الآخر.. وعندما يقفز فإنه يضرب الخصم برجليه.. ويحاول أن يضربه بالأصبع الحادة.. أما المنقار فإنه يصيب الرأس.. وينزف الخصم من الرأس.. وينهار.. ولكن فى هذه المرة، هرب أحد الديكين بعد الضربة الأولى. وانتهت المباراة بهزيمة الديك الهارب..

وجاء دور والدى.. الذى جلس وأمسك الديك أمامه. ولابد أنه كان يقرأ آيات من القرآن الكريم : فقد تغير لون وجهه. ورأيت قطرات العرق. وحاولت أن استخرج المنديل من جاكتة والدى لكى أجفف العرق. ولكن لم يتسع الوقت. ولم يكن لديه أدنى استعداد لذلك. فقد تركزت عيناه على الديك المنافس.. ثم إنه رفع «برغوت» إلى فوق ثم شخط فيه.. وشتمه.. وهدد بأن يبصق على وجهه ـ أو هكذا تصورت.. ثم أطلقه على الأرض.

وانقض برغوت نحو الاكسبريس. وراح يعلو ويهبط ويضربه فى رأسه وفى بطنه.. ثم ركب فوقه واعتلاه تماما كأنه دجاجة.. وراح يفعل به ما يفعله الديك بالدجاجة.. وصاح الناس. وخرجوا وهرب الديك الخصم.. وانتهت المباراة.

والناس يضحكون ويسخرون ويضربون كفا بكف..

وسمعت من يقول: حتى الديك.. علموه أن يكون دجاجة.. حتى الديك ليس فى هذا البيت رجل واحد.. يا خبر أسود!

أما هذا الديك فيملكه صاحب البيت الملعون!

وانتهت المباراة..

وكانت السعادة واضحة فى كل ما يقوله والدى.. وكان الناس يهنئونه على حسن التربية.. ويضحكون على الديك الآخر الذى أهين فى شرفه وعرضه و«رجولته».. الديك فقط هو الذى أهين، أما صاحبه فيرى ذلك طبيعيا - أى من الطبيعى أن يحدث ذلك لكل أحد فى ذلك البيت!

وأشار والدى إلى أن نذهب إلى أحد المطاعم. وأخرج سلسلة من جيبه وربط ساق الديك فى أرجل الكرسى الذى يجلس عليه. وجاء الفول والطعمية والصلطة والبيض والشاى واللبن..

وطلب من الجرسون أن يأتى بطبق فول بلا ملح ولا زيت ثم أشار إلى الديك فقال الجرسون: الحساب كله قرشان.

والتفت والدى يقول: تعرف يا ابنى.. هذه آخر مرة.. سوف أذبح هذا الديك اليوم.. وإن كنت لا استطيع أن أذوق لحمه. أنا لا أريد أن أغضب والدتك.. فالحق معها.. الحق معها.. إن تربية هذا الديك تتكلف كثيرا.. ثم إننى لا استطيع أن أذبحه.. إن نفسى لا تطاوعنى. سوف أعطيه لأحد الأصدقاء..

وكان شعورى من أوله لآخره، إن كان له أول أو آخر، هو عدم الارتياح، فصراع أو قتال الديوك، عنف دموى.. خاطف. مفزع.

والخلافات التى تتكرر فى البيت، ولا أفهمها ولا أعرف لها حلا. ولا أعرف إلى جوار من أقف. وأحمد الله أن أحدا من والدى لم يسألنى عن رأيى. وإنما كانا حريصين على ألا يكون لى رأى، وذلك بألا أسمع شيئا مما يقولان. فأمى لا تريد شيئا يشغلنى عن النجاح بتفوق. وأبى لا يريد أن يغضب أمى. والحل هو خروج هذا الديك من البيت، حتى نبقى جميعا فى البيت نستأنف حياتنا المحدودة الضيقة الخائفة الخانقة..

وعندما عدنا إلى البيت لم نجد والدتى.. إذن فلقد سافرت إلى بيت والدها. ومعنى ذلك إن يسافر والدى بعد يوم أو يومين ليعيدها. وأسافر أنا معه..

وتركنى والدى. وجلست وحدى لا أعرف معنى ذلك كله. ويدهشنى كثيرا جدا كيف أن رجلا رقيقا مؤمنا متصوفا شاعرا مثل والدى ينشغل بهذه الرياضة الدموية.. كيف إنه يعرف أنها مرهقة ماديا ومن الممكن أن تقضى على هذه الأسرة، ومع ذلك لا يجد وسيلة للتخلص منها.. لم أعرف ولم أفهم.

فقد كان والدى يقتنى الخيول. وكان يقفز فوقها تماما مثل رعاة البقر.. وكان الناس يتحدثون عن قوته غير العادية. فقد سمعت من أحد أقاربى أن والدى عندما كان شابا.. كان يضع يده تحت بطن الحصان ثم يرفعه إلى أعلى.. ولكنى لم أر ذلك..

وكان يقتنى الأبقار والجواميس..

ثم ذهب كل ذلك ـ ولابد إنه وجد بديلا فى الديوك.. ثم إن والدى ليست له هواية أو متعة أخرى.. فلا هو يسهر فى المقاهى.. ولا هو

يلعب الورق أو الطاولة ولا هو يدخن.

وعرفت فيما بعد إن إحدى جاراتنا قد اخبرت والدتى بأن أحد أصدقاء والدى قد عرض عليه الزواج من أخته.. ولذلك كانت ثورة والدتى وغضبها على الديك.. وعلى الأموال التى ينفقها..

ولما عرفت والدتى بعد ذلك أن أخت هذا الصديق فى التسعين من عمرها، خفت حدتها فى الهجوم على الديك.. وعلى هذه الهواية الغريبة.. ولكن والدى كان قد تخلص من الديك.. ولم تبق إلا صورته على الحائط وقد أمسكه والدى.. وصورة أخرى لوالدى وقد ركب حصانه الجميل.. وقد ارتدى البدلة كاملة والطربوش.. وبرزت على صدره السلسلة الذهبية للساعة التى أهدادها له صاحب الدولة عدلى باشا يكن.. وبقدر ما فرح والدى بهذه الساعة، بقدر حزنه.. فقد كان يتوقع من الباشا مكافأة على حسن إدارته وعلى أمانته وعلى تزايد عائدات الأرض!

* * *

وتنقل والدى بين الهوايات وتواضع فيها.. وقد شغلته هذه الهوايات وعزلته عن الناس..

وعلى الرغم من أنه كان رجلا اجتماعيا محبا للناس، يحبه الناس.. فإننى كنت أراه جالسا ونائما على سجادة الصلاة والمسبحة فى يده وقد غطى وجهه بمنديل.. وكنت ألمح أحيانا بعض الدموع فى عينيه.. إذن فلقد كان والدى فى حديث أو نجوى أو شكوى إلى الله.. فما الذى كان يشكو منه؟

لابد أن لديه الكثير..

وعرفت، عندما كبرت، أننى كنت واحدا من بين هذا الكثير، فقد كان يخاف ألا يمتد به العمر حتى يرانى قد تخرجت فى الجامعة.. يرحمه الله لقد عاش دقيقة واحدة بعد أن أبلغته أننى حصلت على الليسانس..

وكان رجلا متماسكا. حريصا على الذى يخصه.. على الذى يحبه.. من الناس والأطعمة والقيم والملابس والهوايات..

فبعد الخيول أحب الكلاب.. وبعد الكلاب أحب الديوك.. لا كل الديوك ولكن نوعا واحدا منها.. وهكذا أخذ يتراجع ويتواضع فى هواياته.. حتى الديك عندما شاء أن يجعل له اسما، جعل اسمه «برغوت»!

ولم يفلح أبى فى «تأنيس» الديك الهندى.. فكان إذا أطلقه فى البيت يتهجم علينا.. وعلى كل شىء لونه أحمر.. وأحيانا كان ينقر منظاره الزجاجى.. وكان والدى يندهش لذلك..

ولم ينتبه إلى أنه هو الذى رباه وعلمه أن يكون وحشا مفترسا.. وكان والدى يجد من الشعر ما يعبر عن هذا المعنى. وقد سمعته يردد كثيرا لأصدقائه أن رجلا بدويا أعجبه ذئب صغير فقرر أن يربيه فى بيته فأطعمه الخبز واللحم وأرضعه لبن الأغنام.. حتى إذا كبر، أصبح أقوى من الكلاب، وفى يوم فوجئ الرجل البدوى بأن الذئب قد هجم على شاة وأكلها. واندهش الرجل البدوى: إذ كيف يربيه كلبا، فيرتد ذئبا؟

وقال العربى:

أكلت شويهتى وفجعت قلبى ... وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا ... فمن ادراك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء ... فلا أدب يفيد ولا أديب!

* * *

وعندما طال المرض بوالدى.. خطر لى أن أهديه ديكا هنديا. فقد كانت لأحد الزملاء مزرعة دواجن بالقرب من إمبابة..

سألت صديقى : كم يساوى؟

فقال : جنيهان..

فقلت : أنا مدين لك بهما.. أو تعال خذ من بيتنا ما يساوى ذلك من الكتب..

واندهش صديقى وسألنى : ولكن لماذا؟

قلت : أريد أن أهديه لانسان عزيز على..

قال : يا أخى خذه فى أى وقت بلا مقابل.. كأننى قد ذبحته لك..

وأسعدنى ذلك. وأخذت الديك من قرية تبعد عن إمبابة عشرين كيلو مترا.. وكان الجو حارا. ولكنى لم أجد وسيلة إلا المشى.. ولما لاحظت أن الديك يلهث من شدة الحر كنت أجلس تحت الأشجار ثم أجعله يشرب من القنوات وأحيانا من النيل نفسه.. وحاولت أن أقدم له أى طعام ولكنه كان يرفض.. ثم جلست فى أحد المقاهى.. وتذكرت ما الذى كان يفعله والدى، ولم أفلح فى إقناع الديك بأن يشرب. وظل يلهث. وقلبه يدق عاليا. وخشيت أن يموت قبل أن يراه والدى.. وقررت أن يستريح الديك يوما، وبعد ذلك أذهب إلى والدى الذى تمدد فى «عوامة» فى النيل لواحد من اخوتى، ثم وضعت الديك فى كيس من الورق. وأحكمت إغلاق الكيس بالدبابيس. فقط رأس الديك هو الذى يظهر منه..

ودخلت على والدى والديك فى يدى قائلا : إن لم يكن هذا «برغوت» فهو واحد من أقاربه.. أو من أحفاده..

وأظن أن والدى قد افتعل ابتسامة.. ثم أشار بيده إلى أن أجعل الديك قريبا منه، ثم أخرج يده من تحت الغطاء ودون أن ينظر إلى الديك، تلمس أصابعه وهز رأسه بما معناه: إن الديك ليس هنديا..

فقد وجد أصابعه صغيرة.. ولم أكن قد لاحظت ذلك.. ثم أشار أن أقترب منه.. فجعلت الديك أقرب.. فأشار أنه يريدنى وليس الديك.. فاقتربت ووجدته يقبلنى شاكرا..

ودون شعور منى سقط الديك من يدى. وخرج من الباب.. ثم وقف على السور الخشبى للعوامة ومرت سفينة شراعية عليها عدد من الدجاج فقفز الديك إلى حيث الدجاج.. وأشرت بيدى إلى صاحب المركب أن يحتفظ به!

ولم أعرف السبب الحقيقى الذى جعلنى أبحث عن ديك لوالدى فهو لم يحدثنى عن شىء من ذلك.. ولا هو قادر على أن يطلب شيئا، ولا أظنه فى سنواته الأخيرة كان يحن إلى ماضيه.. فقد ثقلت همومه وأمراضه.. وتحددت إقامته وأحلامه وآماله.. وأصبحت كل أيامه انتظارا للحظة الذهاب إلى ما وراء هذا العالم..

ولم أجد سببا معقولا إلا أننى كنت فى ذلك الوقت غارقا فى الفلسفة الاغريقية.. وآخر ما قرأته كان انتحار الفيلسوف العظيم سقراط.. فقد اتهمه قضاة اثينا بالالحاد وإفساد الشباب.

وحكموا عليه بالموت. فقرر أن يموت بيده فانتحر بكأس من السم.. وقبل أن يموت طلب من تلامذته أن يفوا بالنذر.. فقد كان سقراط قد نذر للآلهة ديكا.. فطلب من تلامذته أن يذبحوا ديكا نيابة عنه.

ولم يكن أحد قد حكم على والدى بشىء.. ولا هو مدين لأحد.. وإنما

حياته انتحار مستمر.. فقد كان إنسانا طيبا محبا للناس. ولم يكن يصدق كثيرا أن الناس أشرار.. يتظاهرون بأنهم طيبون ماداموا يحتاجون إليه.. أشرار كلاب، إذا لم تعد لهم حاجة عنده.. لم يصدق ذلك.. وكان أولاده كثيرين، وكان رزقه قليلا.. وقد حاول أن يعتصر الرزق من الحجر أى من قلوب الباشوات أصحاب الاقطاع واحدا بعد واحد.. وكانوا يعاقبونه على أنه أعطى للفقراء بعض قمح الباشا.. وكان لدى الباشا قمح كثير وذرة ومال وحيوانات.. وليس لديه أولاد..

وكان عقابهم لوالدى واحدا: يشير إليه الواحد منهم أن هذا فراق بيننا..

ولم يكن أحد من الباشوات يذهب إلى أقسى من ذلك.. لأن والدى إنسان طيب مؤمن مخلص.. وأنه شخصيا لا يطمع فى شىء يملكه أحد.. ولذلك فهو لا يملك شيئا فإذا أخذ شيئا فلغيره من الناس.. حتى أن عدلى باشا يكن قال له فى يوم من الأيام: أصبح الناس ينظرون إلينا على أننا لصوص وأنت السبب.. أنت أعطيتهم ما لا يستحقون.. أنت جعلتهم يطمعون فى كل ما نملك إننى أخاف إن جئت هنا وحدى أن يأكلنى الفلاحون!

ومرة أخرى قال له عز الدين بك يكن: يا عم محمد.. ما الذى أصنعه.. ربنا خلقنى غنيا وخلقهم فقراء.. هذه حكمته.. وأنت تريد أن تقلب نظام الكون.. طيب يا أخى بدلا من توزيع المحصول على الفلاحين، خذ لنفسك شيئا.. أنت أحق من كل هؤلاء!

هل كنت أريد أن أدخل السرور على والدى.. أعتقد ذلك. ولم أستطع.. فلم تعد لديه قدرة على الضحك.. ثم إن الديك كانت أصابعه

قصيرة.. فلم يكن هنديا وإنما مصريا تركيا.. إذن فعندما ابتسم والـدى كان يقصد أنه اكتشف ذلك.. وأننى لا أعرف الفرق بين أنواع الديوك..

وبينى وبين نفسى كنت على استعداد أن آتى بديك من أى نوع وأن أمشى هذه العشرين كيلو مترا إذا كان ذلك يؤدى إلى طول عمر والدى ابتسامة بعد ابتسامة وديكا بعد ديك..

٢

وعندما زرت الفلبين مرة أخرى طلبت أن أرى كل شىء.. إلا صراع الديوك!

وحاولت بعد سنوات طويلة أن أبحث عن سبب اختفاء هواية «مصارعة الديوك» فى مصر، وعرفت أن القانون قد حرمها. رفقا بهذه الحيوانات ومنعا لانتشار المراهنات.

ولم أجد كتابا عن «صراع الديوك» ولا وجدت فى الصحف والمجلات المصرية أحدا قد تحدث عنها..

ولكن وجدت فى المعاجم ودوائر المعارف الغربية شيئا كثيرا. فهى هواية قديمة ترجع إلى ألوف السنين.. ويقال إن المؤرخ الاغريقى هيرودوت عندما جاء إلى مصر وجد الفراعنة يتفرجون على الديوك يقتل بعضها بعضا.

وكثير من ملوك الاغريق كانوا يدمنون هذه الهواية. الاسكندر الأكبر واحد منهم. ويوليوس قيصر..

وأشهر ملوك أوروبا ادوارد الثامن ملك بريطانيا..

وكثير من رؤساء الجمهورية الأمريكان..

وفى سنة ١٨٤٩ حرمت الملكة فيكتوريا هذه الهواية تماما.

ولكن هذه الهواية ما تزال فى كل الشعوب اللاتينية.. فى أسبانيا وفى الفلبين.

وإن كانت الشعوب اللاتينية تفضل مصارعة الثيران، التى هى بين ثور وإنسان.. وليست بين اثنين من نفس النوع..

وقد رأيت مصارعة الديوك أول مرة فى جزيرة «بالى» باندونيسيا.. فقد وجدت الديوك فى أقفاص فى الشارع.. ويخرجون ديكا من هنا ليواجه ديكا من هناك.. وما هى إلا لحظات حتى ينكسر ديك وينتظر ديك آخر.. ويذهب الناس إلى شبابيك المراهنات يقبضون ما كسبوه.

ولم أهتم كثيرا بهذه الهواية.. فقد انشغلت بغرابة البلاد التى رأيتها لأول مرة سنة ١٩٥٩. ولم أتذكر ما رأيته وأنا طفل فى بيتنا..

ولكن عندما ذهبت إلى الفلبين فى السبعينات اتجهت عامدا متعمدا إلى أندية مصارعة الديوك لأرى بوضوح ولكى أعرف. وبحثت عن كتب ووجدتها وقرأتها.

فدخلت ناديا مغلقا.. وفى داخل النادى قاعة كبيرة، ووسط القاعة يوجد مسرح صغير. والمسرح محاط بالأسلاك.. والناس قد جلسوا فى مقاعد تشبه المدرجات الرياضية..

وكل ديك قد تعلق منه رقم خاص.. ويجلس على الأرض رجلان.. ويقف إلى جوارهما الحكم الدولى الذى يطلق الصفارة فيتحرك الديكان.. وتنتهى المباراة بعد لحظات بأن ينزف الدم من أحدهما أو الاثنين معا..

ولكن رأيت شيئا غريبا حقا. فقد ربط صاحب كل ديك نصلا حادا طويلا فى رجل الديك اليسرى. ولف حوله رباطا أو شريطا فلا يكاد ينطلق الديك فى اتجاه خصمه حتى يكون النصل الحاد قد قطع عنقه أو نفذ إلى بطنه وقلبه..

وهكذا تنتهى المباراة فى لحظات.. ثم يصرخ المتفرجون ليظهر ديكان آخران.. وبعد لحظات يسيل الدم. وينتقل الديك الذبيح إلى خارج الحلبة.. وليصبح طعاما فى أى بيت..

مئات الديوك فى يوم معلوم تسيل دماؤها.. والناس يتراهنون ويكسبون عشرات الألوف من الجنيهات..

لا أعرف عدد الديوك التى نزفت دما والتى أدركوها بالذبح خارج الحلبة..

وعند باب هذا النادى المغلق وجدت رجالا يبيعون السكاكين والأمواس الحادة التى توضع فى ساق كل ديك..

ومثل هذه الأسلحة الحادة لم تكن معروفة على أيام والدى. ولذلك كان يكتفى باستخدام السكين والصنفرة. فى تحديد أصبع الديك ـ أى جعلها حادة قاطعة قاتلة.. ولم يكن الديك فى طنطا قاتلا وإنما كان يجرح الخصم ويدميه فقط!

وهناك قواعد وأصول يجب اتباعها فى اختيار سلالات الديوك.. وفى تربيتها وإطعامها وتدريبها.

وهناك قواعد للتحكيم أيضا..

والديوك نفسها لها أخلاقيات، فالديك لا يهاجم ديكا آخر، إذا كان ما يزال فى يد صاحبه.. فقط عندما يتركه على الأرض.

والديك لا ينقر ديكا آخر فى عينيه ولو ظل يقاتله ليلا ونهارا..

وإذا أصيب ديك بإسهال فإن الخصم لا يهاجمه.. فهو لا يهاجم ديكا مريضا أو خائفا..

والديك لا يضرب ديكا آخر إذا استسلم له من أول لحظة!

٣

ولأمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة مشهورة عن « الـديك والدجاج البلدى » ـ عن استبداد الـديك الهنـدى وضـعف البلدى.. فقد خدعها الديك الهندى، ودخل بيتها وأستولى عليها شوقى :

بينا ضعاف من دجاج الـريف
تخـطر فى بيـت لهـا طـريف،

* *

إذا جاءها هندى كبير العـرف
فقام فى البيت قيـام الضـيف

* *

يقول : حيـا الله ذى الـوجوها
ولا أراهـا أبـدا مـكروها

* *

اتيتـكم أنشر فيـكم فضـلى
يـوما، وأقضى بينـكم بـالعدل

* *

وكل مـا عنـدكم حـرام
علـى، إلا المـاء، والمنـام

* *

فعـاود الـدجاج فى أمـــان
تحلـم بـــالذلة والهـــوان

❊ ❊

حتـــى إذ تهلل الصـــباح
واقتبست من نـوره الأشـباح

❊ ❊

صاح بها صـاحبها الفصـيح
يقـول: دام منـزلى المليـح

❊ ❊

فانتبهت من نـومها المشئـوم ،
مذعورة من صـيحة الغشـوم

❊ ❊

تقول: مـا تلك الشروط بيننـا
غـدرتنا والله غـدرا بينـــا

❊ ❊

فضحك الهندى حتى اسـتلقى
وقال: ما هذا العمى يا حمقـى

❊ ❊

متى ملكتم ألسـن الأربـاب؟
قد كان هذا قبل فتح البـاب!



زار..

١

من المؤكد أننى لم أنم فى تلك الليلة. أو أننى تخيلت ذلك. ولكن الليل كله قد ضاع بين الانتقال من عربة إلى حنطور إلى زورق إلى فرن إلى بحر إلى تحت عجلات القطار.. إلى اناء ضخم به ماء يغلى، وظللت أحاول أن أقفز منه فلم أستطع.. وأننى صرخت كثيرا. وأن أحدا لم يستمع لى.. وكلما مددت يدى خارج الاناء، وجدت قردا.. وثعبانا.. وعفريتا.. وعيونا وأنيابا.. ومسامير وناظر المدرسة.. وعصا أمى.. وكلما حاولت أن أهرب اصطدمت بكل ذلك فأظل أصرخ وأقاوم.. إلى آخر الهلوسات والكوابيس التى طحنت جسمى طوال الليل.. فلما جاءت خالتى توقظنى وجدتنى جالسا أتصبب عرقا.. أحمر العينين.. ما أزال أرتعش.. وأشارت بيدها أن أتبعها.. وبسرعة خرجنا دون أن ينتبه أحد إلى ذلك.. ونظرت إلى وجه خالتى فوجدتها جميلة فعلا: العينيان خضراوان.. والوجه أحمر مستدير. والشعر ذهبى. الوجنتان متوردتان والشفتان أيضا. وذراعها ملفوف ناعم. والأساور الذهبية قد غطت جانبا كبيرا. ولكن الذى رأيته فى عينيها كان شيئا أكثر من الخوف. ولم أسأل خالتى إلى أين. فأنا أعرف. ولكن أمى يجب ألا تعرف. حتى خالتى تخاف من أمى. أو أنها لا تخافها. ولكنها لم تجد أحدا يذهب معها. فأبناء أخواتها، لا تحبهم. ولا تطمئن إليهم. أو أنها تحبنى، كما أحبها..

وكان الجو باردا. والشبورة ستائر رقيقة تلف الأشجار. وتلفنا أيضا. فلم نر أحدا، ولم يرنا أحد. وكانت خالتى تسرع فى خطاها. ولا تتلفت

وراءها. وكانت قد غطت جانبا من وجهها.

ولم أفهم لماذا؟

ولماذا خالتى تريد أن تحضر حفلة «زار».. أو جلسة زار.. لقد سمعت أمى تشكو من أمراض كثيرة.. ولما ضاقت بالأطباء نصحتها إحدى قريباتها أن «الزار» هو الدواء الوحيد.. ولا علاج غير ذلك. إنه وحده الذى «يروق» الدماغ. وهو وحده الذى يمنع الحسد. ويحمى لها الأولاد. ويعيد إليها الزوج. ولم تتحمس أمى لذلك. وإنما كانت تستمع ولا تعلق بشىء. كأن الذى تشكو منه أمى، تعرفه تماما. وتعرف أن علاجه ليس الزار.. أو لعل لها أسبابا أخرى لم تقنعها بأن تذهب إلى هناك..

أما «هناك» فهو البيت الذى ينعقد فيه الزار. وهو بيت عند أطراف القرية.. اختاروه بعيدا عن عيون الناس. وعن شكاواهم من عنف الطبول والدفوف وصرخات النساء. هكذا فهمت..

ولم أكن قد رأيت هذا البيت.

ولكن خالتى كانت تمرق كالسهم بين الحقول. وكانت لا تبالى بالطين والحجارة فى طريقها. وعندما كانت تغوص أقدامها البيضاء الصغيرة التى صبغتها الحناء، لم تكن تلتفت إلى ذلك.. ولما حاولت أن أنفض الطين عن حذائى أو ملابسى كانت تدفعنى إلى الامام.. وأحيانا تجرنى..

وعبر إحدى القنوات التى امتلأت بالماء نزلنا، وخضنا الماء الذى ارتفع حتى صدرى.. ولما رأت الخوف على وجهى كادت تضربنى. واستسلمت. ومضيت وراءها.. وأشارت لى أن أعصر «لفة» الملابس التى فى يدى. وقالت ـ وهذه أول مرة تنطق بكلمة: إنها ملابسك.. إنه

جلبابك الذى سوف ترتديه قبل أن تدخل البيت!

وأشارت بيدها إلى البيت. وأمام البيت وجدتها قد خلعت ثوبها الأسود. وظهر من تحته فستان أحمر وردى شفاف. وتحته قميص وردى أيضا. وحزام أخضر. ورأيت أصابعها مصبوغة بالحناء. ورأيت قدميها قد صبغتا بالحناء أيضا. ثم أخرجت جوربا أبيض. وأدخلت فيه قدميها.. وطلبت منى أن أخلع ملابسى بسرعة. وأن أرتدى الجلباب. إنه جلباب أبيض وعلى الصدر كف حمراء.. كف من دم أو من حناء.. ثم طاقية بيضاء.. ثم حبل أحمر.. وطلبت منى أن ألفُ الحبل حول وسطى.. ولم أقاوم..

ثم أشارت أن أقف وراءها. وراحت تدق الباب: يا أسياد.. يا أسيادى.. يا أهل الله.. يا أهل البيت.. يا مبروكين.. يا سلطانة.. أنا جئت إليك يا سلطانة.. الشفاء من الله.. والدواء منك يا سلطانة. جئت تعبانة عدمانة ومش ندمانة.. الرحمة يا سلطانة.. افتحى بابك.. وقلبك يا مبروكة.. عندى كل ما تطلبين.. أحضرت لك ما أمرت به يا سلطانة.. يا أسيادى.. خدامة لكم يا أسيادى..

وأخذت تبكى. ثم جلست على الأرض. وراحت تدق الباب.. ثم تمسح وجهها فيه.. ثم تستدير لتمسح ظهرها فيه.. والدموع تنزل على خديها.. وعيناها أكثر اتساعا وبريقا. ووجهها أشد احمرارا.. وصوتها الجميل أصبح مبحوحا أكثر.. إنها إنسان آخر.. ولم تعد تدرى بى. وتنظر ناحيتى وكأنها لا ترانى.. ثم جلست على الأرض أمام الباب.. ومدت ساقيها إلى الأمام وبدأت تعرى صدرها.. الذى تغطى هو أيضا بأشكال من الذهب.. ومن أذنيها تدلى حلق طويل ذهبى.. ولم أنتبه إلى أن سيدة أخرى قد جلست إلى جوارها.. وثالثة ورائى ورابعة وخامسة..

وكلهن على الأرض وتدور رءوسهن يمينا وشمالا ويبكن.. وينادين: يا سلطانة.. الرحمة يا سلطانة.. النبى تبسم يا سلطانة.. والنبى جئت إليك من طنطا.. من بنها.. من أسيوط.. من المنصورة.. الرحمة.. افتحى الباب.. الله يفتح عليك.. الله يفتح فى وجهك كل باب.. وكل بيت.. وكل قلب.. الرحمة..

وجاءت هذه الكلمة الأخيرة كأنها صراخ.. أو كأنها عويل..

وكانت خالتى أكثرهن تماسكا.. إنها تبكى وتهتز.. ولكن واحدة إلى جوارها.. راحت تنكش شعرها.. وتعرى صدرها.. ثم تمزق ملابسها.. وابتدأت من ذيل الفستان.. ثم القميص الوردى.. ثم القميص الأبيض.. وانكشفت ساقان نحيفتان سمراوان.. كأنهما من الخشب المحروق.. ثم أخذت تتلوى.. ثم تتمرغ على الأرض.. وثانية راحت تشد شعرها.. وتهز رأسها يمينا وشمالا.. وصدرها يعلو.. وقدماها ترتعشان..

وفجأة نهضن جميعا: يا سلطانة.. يا سلطانة.. النبى تبسم يا سلطانة..

لقد انفتح الباب.. ودخلن بسرعة واتجهن إلى غرفة مظلمة. وسحبتنى خالتى إلى جوارها. وفى الظلام دفعتنى إلى أحد الأركان. وبدأ الصراخ والبكاء والعويل.. ودخلت نساء أخريات.. واختلطت الأدعية بالصلوات بالصرخات بالحركات. وفجأة انطلق البخور فى الغرفة المظلمة. وكان البخور فى اناء يتحرك.. كأنه يتحرك وحده.. ولكن على ضوء النار رأيت التى تحمل البخور سيدة ارتدت فستانا أسود.. أو هى عارية من غير فستان.. كانت عارية تماما.. وكانت تمر بالبخور على النساء اللاتى يصرخن واقفات أو نائمات.. وعلى ضوء النار وجدت بعض النساء قد تعرين تماما.. وكانت السيدة الزنجية تنتقل بالمبخرة فى مواجهة كل

واحدة. كأنها تدعو كل واحدة إلى أن تكشف ملابسها.. أو ما تحتها فكانت إذا وجدت واحدة ما تزال بملابسها تشد قميصها أو ثوبها أو تمزقه أو تهدد باحراقه أو احراقها.. وكانت تواجهها صراخات تقول: أمرك يا سلطانة خدامتك يا سلطانة.. الأمر والنهى لك.. السمع والطاعة لك..

واقتربت هذه السلطانة فوجدتنى جالسا خائفا مذهولا. فقالت: رجل؟!.

وقالت خالتى: عيل.. يا سلطانة.. ابن أختى يطلب بركتك وطاعتك.. وخدمتك.. والنبى باركيه.. اهديه.. عيل.. يبوس رجليك ويديك.. وتراب جزمتك يا أم النور والبركة.. لولا أن أمه زارتك.. ما كان ربنا رزقها بيه.. ابنك يا سلطانة.. وسوف يبقى ابنك ليوم القيامة.. البركة.. الأسياد يا سلطانة.. غلبان لا ينام الليل يا سلطانة..

وخشيت أن أتلفت إلى يمينى فأجد خالتى هى الأخرى عارية أيضا.. فاقتربت منها وأنا مغمض العينين وصرخت فيها: لا تخلعى ملابسك..

إذا فعلت فسوف أقتلك!

ولا أظن أننى قلت شيئا من ذلك فى حياتى لأى أحد ولا أعرف كيف استطعت. ولا حتى من الذى فى داخلى قال ذلك. ولم أجرؤ على النظر إلى وجه خالتى. أو ناحيتها. ولكنها قالت وكأنها سعيدة بما سمعت: اسم الله عليك. راجل ابن راجل.. خلاص علشان خاطر عيونك.. ربنا يحرسك. ويحميك..

وفتحت عينى خائفا من الصدمة. ونظرت إلى خالتى فوجدتها بملابسها كاملة.. ولكن شعرها قد تدلى على صدرها وعلى كتفيها..

ووجدت الكحل الأسود قد أفسد جمال عينيها.. فقد وضعت السلطانة المبخرة إلى جوار خالتى وازدادت النار توهجا.. وازدادت الوجوه إحمرارا وحريقا.. ووجدت خالتى قد نزعت فستانها فلم يبق إلا القميص..

وجلست إلى جوارى على الأرض.. ثم وجدتها تلف ذراعها حولى.. وتقول : راجل.. أنا أحب الراجل.. انت عارف لماذا لم أتزوج ابن خالى.. لم يكن رجلا.. لقد كانت الكلمة كلمتى.. وكنت أنا الذى أضربه على قفاه.. وكان يضحك وتمنيت لو أنه قطع يدى.. أو فتح رأسى.. وحملنى على كتفه وألقانى فى البحر.. وأظل طول الوقت أقبل رأسه وجبهته ويديه حتى وهو يغرقنى فى النيل.. ولكنه كان لا يرد لى طلبا.. ولا يعصى لى أمرا.. ولو قلت له إننى سوف أجىء إلى هنا عارية تماما.. فلن يبصق فى وجهى.. ربنا يحميك لأمك!

هل سقط سقف الغرفة فجأة.. هل انهارت الجدران.. هل سقطنا كلنا تحت الأرض.. هل هبت العواصف الرملية والترابية والحجرية.. لقد دخل عدد من الرجال والنساء يحملون الدفوف والطبول ويدقونها بمنتهى العنف.. ومعهم سحب البخور. فليس فى الغرفة إلا الأشباح تتلوى وتتوجع وتصرخ.. كأنها أفاع ضخمة.. أو كأنها ألسنة من النار السوداء.. أو كأنها أنياب وحش.. اقتلع الغرفة ومن فيها.. أو كأنها تروس طاحونة ضخمة تسحق ولا تقتل، تهز ولا تكسر.. وقد تساقطت الأجسام فوقى.. وداستنى الأقدام.. وتساقطت على وجهى نقط من الماء أو من العرق.. أو من الدم لا أعرف.. وسمعت أصواتا فى داخل الغرفة تحت الأقدام.. لا أدرى ما هى.. فالظلام شديد.. والضوضاء عنيفة والصرخات خرساء بلا حروف، وبعض الكلمات ليست عربية.. هل هناك

كرابيج تنهال على الظهور.. هل هناك دبابيس تنغرس فى اللحم.. هل هناك أعواد حديدية تلسع البطون والظهور والصدور والسيقان.. فالصرخات من كل لون ومعنى : آه.. الله.. يا هوه.. يا دهوتى.. يا خرابى.. يا ندامتى.. ياريت اللى جرى ما كان.. ياريت ما كان ولا كنت.. الله.. حضروا.. حضروا.. زار.. زاروا.. زارنا.. زارنى.. زارنى.. زارنى.. زغرودة.. ألف مبروك على.. زارنى.. أهو.. زارنى.. خلاص.. خلاص.. بس.. زارنى.. زارنى.. دخل فى قلبى.. زارنى..

وجاءت المباخر.. ونيرانها أكثر حريقا.. أما الرجال فهم بالجلاليب البيضاء والشعور الطويلة.. وفى أيديهم الدفوف والصاجات والطبول.. وأما النساء فصغيرات السن ومتوسطات، والعواجيز قد جلسن على الأرض.. ورحن يتمايلن بالرأس.. والذراعين والساقين.. وبعضهن يدق رأسه بيديه أو فى الحائط.. ويلطم خديه.. أما الذى فى وسط الغرفة فهو طشت.. وفى الطشت دم.. وقد رقصت فيه النساء وتغطت أقدامهن وصدورهن ووجوهن.. ونظرت إلى ملابسى فوجدتها قد غرقت فى الدماء..

هل انطبق السقف على أرض الحجرة.. هل قطعت ألسنة النساء.. هل نزعت قلوبهن.. هل متن جميعا.. هل مت أنا أيضا.. لا صوت.. لا همس ولا حركة.. الأرض قد تغطت بأجسام غارقة فى العرق وفى الدم.. والطبول والدفوف قد خرجت.. وهذه تمددت على ظهرها.. وهذه على بطنها.. وتلك إلتصقت بالحائط.. وهذه إلتوت فى أحد الأركان.. أما الملابس فقد غرقت تماما.. السيقان عليها آثار كدمات.. والصدور والنهود والبطون والظهور..

وفجأة وجدت السلطانة وقد ارتدت ثوبا أبيض. وليس على وجهها أى أثر للارهاق أو العرق أو التعب.. واقتربت منى ونادتنى :

تعال ونهضت مرهقا.. كأن الدفوف والطبول كلها كسرت عظمى ولحمى. لقد إنسحقت تماما.. ربما كنت نائما. فالغرفة ضيقة. والفحم الذى يوضع فيه البخور كفيل بذلك.. ثم هذه الضوضاء والخوف والقلق والضيق والقرف والرغبة فى الغثيان.. ثم الغثيان عندما خرجت من الغرفة.. كأننى احتجت فقط إلى جرعة أوكسجين لأصبح قادرا على الشعور بالقرف والألم..

ثم طلبت منى السلطانة أن أخلع الجلباب وأن أرتديه مقلوبا، فهذا يمنع عنى الحسد ويطيل عمرى.. ثم طلبت منى أن أغسل وجهى وسألتنى: انت راجل ولا لأ..

ثم لم تنتظر ما الذى يقوله طفل فى السادسة من عمره وقالت: طبعا رجل وابن رجل.. انت إبنى.. إن أمك كانت تحملك عندما جاءت إلى هنا.. وحصلت لها البركة.. انت راجل.. ولا كلمة عن الذى رأيته هنا.. ولا كلمة.. انت تعرف الواد هلال العبيط.. لم يكن عبيطا إنه جاء مع أمه.. ثم حكى للناس كل شىء.. فالأسياد ركبوه.. ويا عينى لم يعد له عقل.. فاهم يا حبيبى.. أنا خائفة عليك يا شاطر. ولا كلمة!

وأعطتنى مقشة. وقالت: اكنس أمام الباب فقط.. هه.. يا الله يا شاطر!

وخرجت أمام البيت الذى كانت قد تعلقت به النساء.. عشرون.. ووجدت بقايا الذبائح: ديوكا وخرافا وغربانا ولا تزال آثار الدماء والريش على التراب وعلى عتبة الباب وعلى الباب الخارجى..

وبعد لحظات عادت تقول لى: بيدك اليسرى ألق هذه اللفة فى الترعة.. بيدك اليسرى وليس اليمنى.. هل تعرف أم زعزع.. هذه التى تسكن إلى

جواركم.. إنها مشلولة اليد اليمنى.. لأننى طلبت منها أن ترمى هذا «العمل» باليد اليسرى.. ولكنها استخدمت اليد اليمنى.. فركبها الأسياد.. فأصابها الشلل.. ياالله يا شاطر!

ولما عدت وجدت السلطانة فى انتظارى.. وقد جلست على مقعد خشبى.. وارتدت فستانا أخضر. وفى يدها سيجارة وإلى جوارها فنجان قهوة.. وطبق ملىء بالبيض.. وعلى كل بيضة نقطة حمراء.. وعند قدميها وعاء ملىء بالسكر النبات.. وتضع قدميها وسط السكر النبات.. ثم تقرب بعضه من فمها.. وتكسره بأسنانها.. ثم تنثره على السكر.. إنها تبارك السكر الذى سوف توزعه على الأطفال وعلى الأمهات صحة وبركة..

واقتربت من السلطانة فوجدت أن وجهها الأسود جميل.. مستدير.. الأنف صغير. والعينان لامعتان. والبشرة مشدودة. والشفتان منفرجتان والذقن بارز والجبهة عالية. والأذنان صغيرتان.. والعنق ملفوف.. وكفاها مستديرتان.. إنها ليست كبيرة فى السن.. ربما فى الثلاثينات. ووضعت ساقا على ساق.. ولم تصبغ بالحناء قدميها ثم ضربتنى على رأسى وتقول: عيب يا ولد.. أنا فى سن والدتك.. انت عاوز تأكلنى بعينيك.. راجل من يومك.. يا واد إختشى.. عاوز تتفرج على إيه.. أهوه.. (ثم كشفت عن ساقيها).. إنها ترتدى فستانا وليس تحته قميص.. وأهوه.. (وعرت صدرها وأخرجت نهديها..) وأهوه (وعرت بطنها).. وأهوه (وكشفت عن ظهرها).. وأهوه (وشدتنى ناحيتها بقوة وقبلتنى فى شفتى..) خلاص.. يا أمى.. يا واد أنت بتبص كده ليه..! يا أم السعد.. يا أم السعد.. خذيه معاك!

وجاءت أم السعد فتاة سودانية مثلها.. فى الخامسة عشرة من عمرها.. بدينة.. بارزة الصدر والردفين.. مخنوقة الخصر.. وتمضغ لبانة

كبيرة.. أو لعلها تأكل بصفة مستمرة.. وسحبتنى أم السعد وقالت : ياالله يا أخويا بدل ما أنت قاعد تبحلق لأمى.. تعال معى!.

ودخلنا الغرفة المظلمة.. رائحتها موجعة للصدر.. إنها خليط من العرق والعفن والبخور والدم والفسيخ.. انها صورة بدائية لما رأيت بعد ذلك فى مدينة بومبيبى فى إيطاليا عندما ثار بركان فيزوف فجاءت الحمم الملتهبة وقتلت كل الناس.. أماتتهم ودفنتهم وحولتهم إلى تماثيل فى نفس الوقت.. فكان ذلك أول جريمة فنية ترتكبها الطبيعة..

وأشارت أم السعد إلى الطشت وطلبت منى أن أساعدها فى حمله إلى خارج البيت.. ولم أطق أن أبقى لحظة. وتمنيت أن أغلق أنفى كما أغلقت عينى حتى لا أرى.. ولم أستطع أن أفتح عينى على الدم رغم أن أم السعد تصرخ وتقول: حاسب إنت أعمى؟

وكنت أعمى فعلا أتخبط فى الأبواب والمقاعد.. وأمام البيت وبعيدا عنه قليلا وضعت الطشت الدامى.. ونظرت إلى الطشت.. ففيه بعض الملابس الداخلية.. وامتدت يد أم السعد تلتقط الأساور والخواتم والأقراط والخلاخيل.. وسبقتها يدى إلى الخلخال وانتزعته منها. فقد كانت خالتى تضعه فى إحدى ساقيها. ولما حاولت أم السعد أن تأخذه بالقوة هددتها بإلقائها فى الطشت. فراحت تنادى أمها. وجاءت أمها. واقتربت منى. وقبلتنى فى فمى. ثم أشارت إلى الخلخال. فأعطيته لها. وقالت الأم: ليس لى إنه للأسياد يا حبيبى!

ثم أخرجت من فمها قطعة من السكر وفتحت فمى بالقوة ووضعتها فيه. ولما حاولت أن أقذفها إلى الخارج، وضعت يدها على فمى وهى تصرخ : إبلعها.. إبلعها.. الأسياد.. إبلعها.. وإلا قتلوك اليوم.. إبلعها قلت لك..

وعضضت يدها. وصرخت. ثم راحت تنادى: يا أم السعد.. نادى الأزرق.. ومعه الهردبيس.. ونادى الشعنونة.. كلهم بسرعة!

ودخلت أم السعد.. وفجأة حضر ثلاثة رجال وسيدة ضخمة. وأمسكونى.. وأنامونى على الأرض.. وفتحوا فمى.. ووجدت قطعة من النار بين شفتى.. إنها عصا صغيرة ملتهبة وبها شطة.. وظل فمى مفتوحا. ثم جاءت السلطانة ووضعت السكر الناعم فى فمى.. حتى امتلأ. وكدت أختنق.. أموت.. وهى تقول: إبلع.. البركة.. ستنفعك فى المستقبل.. السلطانة لا أحد يقول لها: لا.. حتى لو كان سما.. إبلع يا فاجر.. أنا عارفة اللى زيك.. يعنى يا واد لو كنت وضعت السكر على ذراعى.. على صدرى.. على فخدى كنت ستأكله ومعه لحمى؟ هل كنت تصرخ؟.. حار ونار فيك.. إنهض يا قرد مسلسل.. إنهض!

لقد ظهرت نساء كثيرات من داخل البيت.. إرتدين الملابس البيضاء.. الوجوه شاحبة.. كأنهن نهضن من فراش المرض توا.. فعلى الوجوه التعب، وفى نفس الوقت نوع من الارتياح.. أو لون من الهدوء.. والعيون شاردة سارحة، إنها لا تركز على شىء.. ما الذى حدث لهن.. ما الذى اختفى منهن.. ما الذى أسقطته الطبول والبخور والصراخ والعويل والتشنج والاهتزاز.. ما الذى فعلته كل هذه الصدمات..

أما خالتى فقد اختفت عن وجهها طبقة من اللون الأحمر.. إنها أكثر بياضا. وعيناها أقل لمعانا. وحركتها أبطأ. وعندما نظرت لى وأنا أتلوى على الأرض، لم تفعل أكثر من أنها تساءلت.. ولم تنتظر منى جوابا.. ثم جلست إلى جوار الحائط وأسندت ظهرها. وتراجعت برأسها.. ثم أغمضت عينيها.. ونامت.. وقد أسندت رأسها إلى الطشت الذى غسلوه ووضعوه أمام الباب.

وجاءت السلطانة بكوب من العرقسوس وقالت: اشرب سوف يريح صدرك.. اشرب.. اسمع الكلام.. وأمسكت الكوب وألقيت به على الأرض.. فقالت متوعدة: وبعدين معاك.. يا أم السعد.. هاتى كوبا آخر.. لبسلامته؟

وجاء الكوب ومعه الرجال الثلاثة والسيدة المخيفة. ومرة واحدة وضعوا العرقسوس المر المتعفن فى جوفى.. وأشعلت السلطانة سيجارة أخرى.. وجاءت سيدة تدلك قدميها وساقيها.. وأخرى تدلك كتفيها وظهرها.. وثالثة تدور بالبخور حولها.. ورابعة تنثر ماء الورد على وجهها.. وخامسة تفك شعرها الطويل الأسود الناعم وتجعله ضفيرتين على صدرها.. ولفته فى منديل أحمر له شراشيب بيضاء..

وتعالت الأصوات والزغاريد تقول: عروسة.. والنبى عروسة.. يا الله إتمخطرى يا عروسة.. ألف صلاة النبى على جمالك.. عروسة.. ست العرايس.. ياالله يا شابة..

وأشارت إلى خالتى أن تنهض.. زفة العروسة.. يا عروسة..

ونهضت السيدات الجالسات أمام الباب.. وقد إنهد حيلهن تماما.. وتساندت الواحدة على الأخرى.. واتجهن إلى الغرفة المظلمة.. لقد أضيئت الآن.. وانفتحت النوافذ قليلا.. وامتلأت بالمناضد الصغيرة.. وعلى كل منضدة صينية بها شربات.. وبعض الحلوى.. ولم تكن لدى واحدة أية رغبة فى الطعام.. ولكن جاءت أم السعد وقد ارتدت فستانا أبيض.. فستان عروس.. وعلى رأسها تاج من الفل.. وقد وضعت الأساور والخواتم فى أصابعها.. والخلخال فى إحدى ساقيها.. وطلبت من السيدات الحاضرات أن يتناولن طعام العروس.. وكان عدد السيدات تسع سيدات.. وقد ظننت أنهن عشرات.. أم وابنتاها.. وسيدة عجوز..

وواحدة يبدو أنها لبنانية أو يونانية.. شقراء تضع برنيطة على رأسـها، زرقاء العينين ولا تتكلم.. وقد أحنت رأسها.. لا تريد أن تنظر إلى أحد.. شربت الشربات وأكلت السكر وبعض الكعك.. والبـاقيات سـودانيات فى الثلاثينات.. ورجل لم أكن قد رأيته قبل ذلك.. وقد ارتدى جبة مزركشة وعمامة سوداء.. وحول عنقه سبحة طويلة صـفراء.. وفى يـده سـيف خشبى.. وهو يقرأ شيئا بصوت منخفض ويهتز ولا ينظر إلى أحد حوله..

وجاءت خالتى وجلست إلى جوارى. ولم تقل شيئا. ورأيت فى عينيهـا الحزن والراحة والعتاب. كأنها لم تكن هناك.. كأنها قالت كل ما لديها، فلم يعد عندها ما تقوله.. كأنها استنفدت ما كانت ستقوله فى الأعـوام القادمة، كأنها بدأت صيام الصمت.. فالذى خرج منها، هو قدرتها على الكلام.. خرجت ولم تعد، ولا تريدها أن تعود.. إنها إنسان آخر.. هـذه التى أراها، ليست هى التى أيقظتنى من النوم. ولا هى التى سـحبتنى عبر الحقول والقنوات.. لقد تغير لونها، كأنها أفرغت ما عندها من دم فى هذا الطشت.. كأن الذى حدث هو حفلة نزيف عام.. كل واحدة نـزفت ما لديها من دم.. أو ما يعكر دمها.. واستراحت. أو يبدو كذلك..

نظرت إليها. لم تنظر. إقتربت منها. لم تتحرك. صدمت يدى بجسمها واعتذرت لم تسمع. قلت لها: خالتى.. مالك!

ضحكت قائلة: تعبت.. وأنت؟

لم أرد. فقد كنت أريد أن أسمعها. أو أطمئن عليها.. أو أطمئن على أنها تشعر بى. وأننى أسعدتها عندما طاوعتها وجئت إلى هنا..

ثم مدت يدها إلى ملابسى.. وسحبت الثوب عن قدمى.. وكشفت عـن صدرى.. وقالت: لقد أحضرت لك ثوبا آخر.. وسوف تستحم هنا. فـأمك

لن ترى شيئا.. ولا تقل لها ما الذى رأيت.. قل إنك كنت تلعب مع الأطفال خارج البيت.. وإنك نمت تحت شجرة.. ولم يعجبك الطعام فلم تأكل.. وإذا سألتك عن هذا (ووضعت إصبعها على شفتك) فقل لها.. ان طفلا قد ضربك بطوبة.. ثم هرب.. إنه جرح صغير.. ربنا يحميك..

ونهضت السيدات ورحن ينقلن المناضد إلى خارج الغرفة.. إلا خالتى فقد أسندت رأسى إلى صدرها.. وهى تقول: تعرف.. مرة واحدة حاولت مع يسرى.. خطيبى.. أن أنام على صدره فدفعنى أمام أمى وأخواتى.. مع إنه ابن عمى.. وتربينا أطفالا.. ولكن أمى تفضل خالتك «أنيسة».. وحاولت إرضاءها. ولكن أمى رفضت.. حاولت أن أكون خادمة لها.. حاولت أن أقف عند رأسها وهى مريضة.. ولكنها كانت تنادى أختى الكبرى ولا تأكل إلا من يدها ولا تشرب إلا من يدها.. وتخلط بين أسمائنا جميعا.. فهى تنادينا باسم هذه الأخت المفضلة.. ومرة كنت أغنى فى الحمام.. فدق يسرى الباب وطلب منى أن أخرس.. لأنه لا يحب الصوت العالى.. فظللت أصرخ وأصوت وألطم.. حتى جاء كل من فى البيت.. وعرفوا الحقيقة.. وكنت أتمنى أن يخطبنى جلال.. أنت تعرفه.. ولكن ذهب إلى المنصورة وخطب واحدة أخرى.. أقصر منى.. سمراء نحيفة.. شعرها أكرت.. ولكنها استطاعت أن تضحك على عقله.. أما أنا فلا أعرف ذلك.. فلم تعلمنى أمى شيئا من هذا.. فقط أن ألبس وأتزوق وأنتظر ابن الحلال الذى تختاره أمى.. وهى اليوم تريد أن ترغمنى على الزواج من ابن أختها.. إنه أخنف.. فلاح.. يزرع الأرض ويركب الحمار ويسوق الجواميس.. رائحته برسيم، ولونه طين وصوته نهيق ويريد أن يكون له أولاد بعدد ما عنده من أغنام.. وزرت كل المشايخ.. واشتريت كل العملات.. وسحرت له.. ولكن أمى مصرة.. وأخذت قصاقيص من فساتين أمى.. وأعطيتها لمن يحرقها ويلقى بها فى

النيل.. أو فى المقابر لعل الأسياد تجعلها تعدل عن هذا القرار.. واليوم إذا عدت إلى البيت ووجدته فسوف أحرق نفسى وأموت..

وفزعت ورفعت رأسى عن صدرها. ونظرت إلى وجهها. فلم أجد أثـرا لكل هذا التهديد والوعيد.. كأن الذى يحدثنى شخص آخر.. أو أنها هى ولكنها غير قادرة على «تشخيص» ذلك.. فالوجه كما هو هادىء شاحب. والعينان ناعمتان صافيتان. والعنق إزداد إحمرارا، والصدر والـذراعان والقدمان.. وعلى جانب من الوجه كدمة زرقاء. ووضعت إصبعى عليهـا وقلت: زرقاء.. سوداء..

ودون أن تنظر ناحيتى قالت ما كنـت أعـرف: وفى جسـمى.. وفى ساقى.. إننى لا أدرى ماذا فعلت.. إنها العفاريت فى داخلى قد انطلقت تحطم كل شىء.. وحطمتنى أول شىء.. ولكنى تعبت واسترحت أيضـا. وسوف أنام الليلة والأيام التالية دون طعـام أو شراب.. وسـوف أكون أحسن بعد ذلك.. أنا أعرف وسوف ترى..

وجاءت أم السعد وفى يدها مبخرة ذات ألوان.. المبخرة من النحاس الأبيض.. وقد ازدانت بالزجاج الملون.. والبخور خيوط بيضاء لها رائحة مختلفة.. وهى تدور حول رءوس الجالسات.. ولم تشأ أن تقترب منـى.. ثم قذفت باللبانة من فمها لتصيبنى فى وجهى.. ثم مدت يدها ووضـعت اللبانة فى المبخرة..

وعادت بعد لحظات لتعلن: العروسة..

ودقت طبول زفة العروس.. ودخل الـرجال والنسـاء وقـد غيـروا ملابسهم.. إنها بيضاء.. وغسلوا وجـوههم.. ولا تـوجد أيـة مـظاهر للارهاق.. بل إن بعضهم يمضغ اللبان أو يأكل السكر.. ثم انهم ينظرون

بعيون جريئة إلى السيدات اللائى جلسن على الأرض.. ويبتسمون أيضا.. وبعض السيدات كن يلقين إليهم بالفلوس.. جنيهات.. وأحيانا أساور وخواتم.. وقد رأيت السيدة العجوز تنهض وتتساند على الحائط.. ثم تحاول أن تهتز ولكنها لا تستطيع. ثم تمد يدها إلى أحد الذين يدقون الدفوف وتعطيه لفة من القماش.. لابد أن يكون فيها فلوس..

واقتربت فتاة منا وسألت خالتى مشيرة ناحيتى: أخوك

ـ لا.. ابن أختى..

ـ مريض؟

ـ لا..

ـ يشكو من ماذا؟

ـ لا شىء..

ـ لماذا جاء؟..

ـ أنا التى أتيت به إلى هنا..

ـ أخى مريض.. ولكنه لم يستطع أن يجىء.. إنه مشلول.. كان نائما وحده فى الليل.. ثم صرخ بأعلى صوته.. وذهبنا إليه لنجده يقول: ان رجلا طويلا أسود ضربه على خده.. ولم يكن فى البيت أحد.. ومن يومها وهو مشلول.. وأمى سوف تموت حزنا عليه. وحاولنا علاج أمى.. تعبنا.. كل أسبوع: زار.. وكل شهر زيارة للأولياء.. لا فائدة..

ـ ولكنها ما تزال تضحك.

ـ إنها لا تضحك.. ان وجهها نصف مشلول.. والذى ينظر إليها من بعيد يخيل إليه أنها تضحك له.. وأنت مالك يا أختى؟

ـ أنا ؟. بختى مايل..

ـ مطلقة ؟

ـ لا..

ـ متزوجة ؟

ـ لا..

ـ مخطوبة ؟

ـ لا.. وإنما لا أريد أن أعيش فأنا لا أجد أحدا أتفاهم معه.. لو قلت لك إنه لا يوجد غير هذا (وأشارت ناحيتى) لقلت إننى مجنونة.. إنه الوحيد الذى أحكى له.. ويشجعنى ويسكت.. إنه لا يقول شيئا.. طفل.. ولكنى أستريح إليه.. سوف أعود إليك حالا.. (وكانت تشير إلى فتاة أخرى فى مواجهتها).

ونهضت وجلست إلى جوار تلك الفتاة.. ثم أشارت أن أتبعها إلى هناك.. ثم همست فى أذنى: إنها ثرثارة..

تقصد تلك الفتاة التى تركتها. ولاحظت أن خالتى لا تحب أن أتحدث إلى أحد غيرها. وأنا أيضا لا أحب أن تتحدث هى إلى أحد غيرى.. إنها أمى الصغيرة.. ماما الصغيرة.. كنت أقول لها ذلك.. وكانت تضحك هى إذا قلت لها ذلك أمام الناس: هو يتمنى أن أكون أنا أمه.. وأنا أتمنى أن يكون هو إبنى..

واقتربت الفتاة من خالتى وهمست فى أذنها: والنبى يا أختى أريدك أن تكشفى عن ظهرى.. إنه يوجعنى جدا.. لا أعرف ما الذى أصابنى.

ثم استدارت ورأيت أثر أسنان غائرة..

فسألتها خالتى : يمكن أمك؟.

ـ لا

ـ يمكن أختك

ـ لا.. انه هذا الرجل أبو طرطور أحمر.. لقد ضربنى فى بطنى.. ومزق ملابسى.. ثم احتضننى بعنف وعضنى فى ظهرى..

ـ ولماذا لا تقولين للسلطانة..

ـ أنا؟ والأسياد؟ أبدا !. والله لو قطعوا لحمى.. فلن افتح فمى.. يارب أستر.. أنت تعرفين ما الذى تفعله الأسياد..

ثم سكتت الفتاة السمراء وقالت : هذا أرحم من الذى أصاب بنت عمتى.. جاءت هنا، ولما رجعت راحت تحكى لعريسها كل ما حدث.. فما كان من الأسياد إلا أن جعلوا عريسها (وهمست فى أذنها) ليس رجلا.. إنهارت.. راحت تصرخ ليلا ونهارا.. نصحوها بأن تجىء إلى السلطانة.. وجاءت فى ثوب الزفاف.. ولما عادت إلى البيت.. نامت فى الفراش شهرا.. ثم أطلعتنا على سرها.. لقد هجم عليها واحد من هؤلاء فعضها فى أذنها وفى ثديها.. وسمانة رجلها.. كارثة.. ولا كلمة.. الله يسترك.. البنت ما تزال مريضة.. كأنى ما قلت لك حاجة.. وأنت ماذا فعلت بهذا الرجل؟

واعتدلت خالتى وهى تقول : أنت رأيت؟ لقد حاول معى.. ولكن (ثم أخرجت مفتاحا كبيرا من جيبها) لقد ضربته بهذا فى وجهه.. ألا تلاحظين أثر الدم على جبهته.. أنظرى..

ـ آه. ومن الذى نصحك بذلك..

ـ إحدى صديقاتى.. السلطانة فقط هى النظيفة الطاهرة.. أما هؤلاء فوحوش.. لا يعرفون الرحمة!

وأطلت أم السعد مرة أخرى وقالت: العروسة.. زغرودة يا حبايب.. زغرودة من القلب..

وزغردت النساء والرجال..

وجاءت السلطانة.. وقد غيرت فستانها ووضعت أحمر الشفاه والخدين ورسمت الحاجبين والعينين.. وامتلأت ذراعاها بالأساور وتدلت أقراط طويلة ذهبية لؤلؤية من أذنيها.. أما صدرها فقد فرشته بأسلاك وشبابيك ذهبية.. ولفت حول جيدها حزاما ذهبيا عريضا. وبسرعة أتوا لها بكرسى فى منتصف الغرفة.. وخرجت الطبول والدفوف ووقفوا خارج الباب. وبدأت السلطانة تهتز وهى جالسة.. ثم يزداد الاهتزاز والتفاف الرقبة.. والجسم كله.. وراحت تخلع الأساور وترميها فى الأرض وكذلك الأقراط والعقد.. ونزعت حذاءها.. وفكت شعرها.. ووقفت تهتز.. وخلعت ثوبها الذى كان ملفوفا حولها.. ثم خلعت ستيانها ووقفت عارية.. وكانت النوافذ قد أغلقت.. والباب أيضا.. وجاء صوت الطبول والدفوف من بعيد.. وراحت تهتز بعنف وتصرخ وتعوى.. وبسرعة نهضت بقية النساء يرقصن.. ويصرخن.. ويمزقن ملابسهن.. وينكشن شعورهن.. ووجدت أننى قد ارتميت على خالتى وقد وضعت ثوبها بين أسنانى حتى لا تنهض. وحاولت ولكنى تعلقت بها.. فراحت تصرخ وهى جالسة.. وتبكى..

وامتلأت الحجرة بالدخان والتراب والماء والعواصف والصفير.. والنباح والعواء.. ثم سكت كل شىء..

ولا أعراف كم ساعة ظللت ملقى على الأرض مغمى على أو نـــائما.. أو الاثنين معا.. ولما فتحت عينى وجدت الغرفة خالية تمــاما.. إنهــا ضيقة جدا.. والنوافذ صغيرة جدا.. والسقف قريب.. والباب ضيق.. ولم أكن قد لاحظت ذلك من قبل.. ثم ان الأرض مفروشة بالقش.. والجدران عليها أكف من الدم.. وعليها وجوه.. وعليها خيول.. وأشجار ونخيــل.. وكل ألوانها باهتة.. وامتــلأت أرض الغــرفة بــالشباشب والصــنادل والأحذية.. لقد ترك الجميع ملابسهم وأخذيتهم.. وارتدوا ملابس أخرى أكثر طهارة.. ملابس مباركة.. وأحذية مبروكة..

٢

ولم أعرف فيما بعد ما معنى كلمة «زار».. هل هى من الزئير.. النساء يزأرن.. أو أن كلمة «زار» قد جاءت من أن كل واحدة تقول: إن العفريت أو السيد قد زارها.. فهو زار.. أى جاء لزيارتها وحل مشكلتها.

ويقال إن الكلمة من أصل حبشى بمعنى: ذهب الشر..

ولم أعرف معنى كلمة «كدية» التى يطلقونها على السلطانة.. أى السيدة التى تقيم حفلات الزار.. وظننت أن الكلمة ربما جاءت من اللغة الأسبانية «كوديا» أى قائدة أو رئيسة.. وخصوصا أن أكثر الذين يقيمون حفلات الزار من الغجر الذين يتكلمون لغات مختلفة.. أكثرهم جاء إلى مصر من بلاد المغرب ومن أسبانيا..

ولكن عرفت فيما بعد أن «الكدية» كلمة عربية. ففى اللغة العربية نقول: كدى.. وأكدى.. وكديا.. وأكدية.. أى تعب واحتال على العيش.. وقد عرف الأدب العربى صورا من «الكدية».. ففى مقامات بديع الزمان الهمزانى والحريرى.. نجد رجالا يستخدمون الأدب والفصاحة للاحتيال على الرزق..

ففى مقامات الهمزانى نجد رجلا اسمه: عيسى بن هشام يروى مغامرات أبو الفرج الاسكندرى.

وفى مقامات الحريرى نجد الحارث بن هشام يروى مغامرات أبو زيد السروجى.. والذى يقوم به هؤلاء الرجال هو «الكدية» أى الكد والاكداء

من أجل الحصول على الطعام.. فهم قد تعمقوا فى اللغة وفى النحـو وفى فنون البديع فيلتف حولهم الناس ويعجبون بهم ولهـم.. ثـم يعـطونهم المال.

وكذلك هذه الكدية أو المكادى..

وعرفت فيما بعد أن الموسيقى علاج للأمراض العصبية والنفسـية.. فالموسيقى تقوم بتنسيق وتمشيط شعور المريض.. أو المتعب.. وتهـزه بعنف.. وتجعله ينطلق بالصراخ والبكاء.. ويقـول.. كل مـا يـريد دون خوف.. ودون كبت..

ولا يزال الأطباء النفسيون يؤمنون بأن جزءا كبيرا من العلاج يبـدأ بالقول.. بالكلام.. بالسرد.. بإسقاط حاجز الخوف والخجـل.. فـالطبيب النفسى ـ عادة ـ يطلب إلى المتعب المريض أن يسترخى.. أن يتمـدد على سرير ويقول كل ما يخطر على باله.. وقد يسمعه أنواعا مختلفة من الموسيقى.. هذه الموسيقى.. سلالم للهرب.. أجنحة للانطلاق.. أطـواق للنجاة.. فيقول المريض.. ويحكى ويروى ويتذكر.. ويستريح لأنـه فعـل ذلك..

وكذلك يلجأ الأطباء إلى الموسيقى والرقص معا. فالأطباء يـرافقون المرضى.. وأثناء الرقص والموسيقى والأحضـان والقبـلات يفضـفض المريض بما لديه.. كل الذى أخفاه عن الناس، كل الذى كبتـه.. ومـن خلال الرقص والموسيقى يتخفف المريض من أعباء الاحباط والاضطهاد واليأس والشعور بالوحدة..

فالموسيقى والرقص إن لم تكن علاجا فهى سبيل إلـى ذلك.. وليس من الضرورى أن تكون السبيل الوحيدة.. ولكنها إحدى السبل إلـى أن يعرف الطبيب ما يحرص المريض على إخفائه.. ولذلك كانت الصرخات.. وكان الخروج من الصمت.. والخروج من الملابس أيضا..

٣

أذكر عندما كنت طالبا فى الجامعة كلفنى د. يوسف مراد أستاذ «علم النفس التكاملى» أن أدرس احدى الحالات المرضية فى مستشفى الأمراض العقلية. واختار لى مريضا.. ووضع أمامى تاريخه النفسى والاجتماعى والصحى. ولم يشأ أن يطيل فى ذلك. فمن المفروض فيما بعد، أن أؤكد ما قاله الأستاذ أو أكتب شيئا جديدا. أو أثبت خطأ الأستاذ. فالذى وضعه د. يوسف مراد أمامى لم يكن شيئا كثيرا. إنه يضع كلمات فى جمل ناقصة. ومن الضرورى أن أكمل ذلك..

أما المريض فهو أرمنى الأصل.. يسكن فى سطوح فى شارع السلطان سليم ـ أى الشارع الذى كان يسكنه الأستاذ العقاد.

ذهبت لأرى المريض الأرمنى واسمه «ارتين».. إنه فى غرفة أنيقة.. ضيقة.. أمه تتركه طول اليوم. وتعمل فى أماكن مختلفة وليس لديها إلا حب ابنها والأمل فى شفائه ـ ولا أمل. وكان أرتين قصير القامة. أبيض الوجه. أسود الشعر. طالت لحيته وشاربه وتقوس ظهره.. ويقف طول الوقت أمام السرير.. ويمسك السرير.. لابد بإحدى يديه.. فهو يعتقد أنه إذا إبتعد عنه سقط ميتا. إذن فإخراج أرتين من هذه الغرفة هو قتل له.. وأحيانا كان أرتين يقول: أنا جنين فى بطن أمى..

أى أن الغرفة كلها بطن أمه، وأنه ما يزال جنينا فى بطنها. لم يولد بعد!!.

أما قصة أرتين : فهو أنه أحب بنت خالته. ولكنها هربت مع أخيه بعد أن صارحته بالحب. ووعدته بالزواج. ولكن أخاه الذى جاء من أمريكا استولى عليها، وهاجر. وتركا أرتين مريضا لا يذكر شيئا من هذه القصة. وإنما أمه هى التى روت لى ذلك بتفاصيل مبكية ـ هى التى تبكى. فقد حذرنا د. يوسف مراد أن نتأثر بشىء مما نسمع أو نرى. فالطبيب ـ ومفروض أننا أطباء ـ يجب أن يخلع عواطفه إذا ارتدى البالطوا الأبيض.. فلو اهتزت يد الجراح مات المريض. ولو بكى كل طبيب على كل مريض، ما شفى أحد.. فليكن الطبيب ميكانيكيا. ولا يوجد ميكانيكى يبكى وهو يصلح السيارة أو الطيارة..

وكان لابد من إقناع أرتين بالخروج من الغرفة إلى السطوح.. أى بالخروج من بطن أمه.. وبعد ذلك بالخروج إلى الشارع الذى لم يره من عشرين عاما.. ولم تفلح أية وسيلة فى إقناع أرتين. لا الكلام.. ولا الضحك.. ولا النكت.. ولا الهزر..

واهتدينا إلى طريقة ساذجة. فكنا ثلاثة وسحبناه بالقوة إلى خارج الغرفة.. إلى السطوح.. ثم جعلناه يرى الشارع.. ولكنه اعتمد بيده على سور السطوح وخاف أن يبعد عنه حتى لا يموت.. وإذا به يقول ان السطوح هو بطن أمه.. وأنه ما يزال جنينا..

وأعدناه إلى غرفته.. ثم أخرجناه. وأعدناه.. وفى كل مرة نستخدم القوة لا الاقناع ـ فلا أمل فى شىء من ذلك!

وكان أحد الزملاء يقوم بدراسة ظاهرة الزار فى مصر.. وكان يتردد على أحد البيوت فى حلوان. وكان يؤكد لنا أن زوجات باشوات مصر يذهبن إلى هناك فى أجمل الملابس وأفخم السيارات. وأنه هو شخصيا قد رأى ذلك عشرات المرات. وقد وجد وسيلة ليكون قريبا من هذا

البيت. فقد اتفق مع جزار يقوم بذبح الخراف والديوك واشترط عليه أن يرتدى ملابس الجزارين. وأن يذهب معه إلى هناك.. وأن يطيل لحيتـه ويرتدى الشبشب.. وأن يتظاهر بأنه عبيط.. فهـؤلاء النـاس يخشـون الصحفيين. فقد تسلل بينهم واحد منذ سنوات وفضحهم وهدد بفضـح زوجات الباشوات والأمراء..

وكان زميلى هذا مقتنعا تماما بأن الزار يصنع المعجزات. والمعجزة التى يصنعها أنه يحل العقد.. عقد الكلام والخوف والضـيق واليـأس والشعور بالفشل والوحدة.. وأنه يعرف سيدات مثقفات جدا ذهبن إلـى هناك. وبعد ذلك تحقق لهن الارتياح الشديد.. مرة واحدة. ولـم تعـد واحدة منهن تحب أن تسمع كلمة الزار.. التى يرى أنها جاءت من اسم رجل رومانى غجرى إسمه «زار» عاش فى القرن السابع الميلادى. وكان له مذهب انتشر بصورة سرية. والذى نشره الغجر فيما بعد.. ثم أحرقت كثير من الدول كتبه. ولكن بعض هذه الكتب ما يزال مخطوطا يتنـاقله الغجر وصاحبات بيوت الزار..

ذهبنا إلى د. يوسف مراد. وكان عالما هـادئا متـزنا رقيقـا. وكان يستمع كثيرا إلى تلامذته. ويزن كل كلمة وكل إشارة. وكان يغـرى أى تلميذ أن يفعل ذلك. وكنا نحاول. وعرضنا عليه ما لدينا. وفجأة قلت له: يا أستاذ ما دام هذا الشاب أرتين لا علاج له معروفا لـدينا.. فلمـاذا لا نجرب معه الزار..

وكأنه لم يستمع إلى شىء قال: انت جرب ذلك..

أى أنا الذى أقوم بذلك. وأحاول. وأحلل. وأكتب. ثم أعـرض عليـه النتيجة. أما هو فلم يشأ أن يقول إن كان هذا الشاب لـه أو ليس لـه علاج. أو كان الزار علاجا.

ولم يكن هذا الرد مشجعا. ولكنه فى نفس الوقت ترك لى حرية أن أجرب، وأن أحاول. وأن أصيب. وأن أخطىء. وفى النهاية سأفوز بتعليق منه. أو بالرأى الصحيح.

وكما لجأنا إلى القوة فى إخراج أرتين من الغرفة.. والنزول به إلى الشارع، فمن الممكن أيضا أن ننقله إلى إمبابة. كل الذى يحتاج إليه هو أن نتعاون على أجرة التاكسى. وقبل أن نذهب إلى امبابة اتفقنا مع «الكدية» على أننا أقارب الجزار الذى يأتى لها بالخراف والديوك التى تحتاج إليها كل أسبوع.. وأن هذا المريض هو جار لنا يتيم.. تركه أبوه وأمه وهاجرا إلى أمريكا، وكانت جدته هى التى تتولى تربيته ثم ماتت.. ولكنها تركت له عمارة وهذه العمارة تدر عليه مالا كثيرا. هذا المال تتولاه الكنيسة الأرمنية فى مصر.. إلى آخر الحكايات التى تطمئن الكدية على أن المسألة جادة وأنه قادر على دفع تكاليف العلاج الخاص. فتقام له وحده حفلة زار. ويكون ذبح الخراف والديوك على حسابه..

وتعبنا فى إقناع الكدية بأن تكتفى بديك واحد.. لأنه لا يطيق أن يرى منظر الدم.. ولا منظر الخراف لأنه مريض مجنون.. وأنه لا داعى لعشرات الطبول والدفوف.. ثلاثة أو أربعة تكفى ولمدة ساعة واحدة فى أى وقت..

ويبدو أن الكدية لم تسترح إلى هذا التفسير.. فوعدت. وفضلت أن تدق الطبول فى بيته هو.. ووافقنا بسرعة. فهذا أرخص كثيرا. ولما عرفت أنه يسكن فى مصر الجديدة أسعدها ذلك فمعظم الذين يدقون الطبول والدفوف والصاجات يسكنون هناك..

أما التكاليف فقد دفعها د. يوسف مراد..

ولم تنجح تجربة الزار فى علاج أرتين.. فقد كان يصرخ من الـدوى.. ولكنه كان يتشبث بالسرير ويضحك بصورة هيستيرية.. وبعد ساعة من الضوضاء العنيفة.. وقف أرتين يحيينا بيديه، كأنه يودعنا.. يطلب إلينا ان ننصرف بعيدا عنه.. وهى أول مرة يرفع إحدى يديه عن السرير..

وبعملية حسابية وجدنا أنه فى حاجة إلى ألف ساعة لكى يصبح قادرا على أن يخرج وحده من الغرفة. إذا خرج فلكى يعود بسرعة إلى داخل الغرفة ويتشبث بالسرير.. ولم يكن يسمح لأمه بأن تنام معه. فقد كانت تنام أمام الباب صيفا وتحت السرير شتاء!

وأبدت الأم إستعدادها أن تبيع عمارتها وأن تقيم لابنها حفلة زار كل يوم!

وكان من رأى د. يوسف مراد: أن هذه الموسيقى والايقاع العنيف يهزه فقط.. ولكنه ليس مضمونا أن يحركه أو يدفعه إلى أى هدف آخر..!

* * *

وعرفت سيدة أمريكية اسمها د. اديث رانكشو قد درست الزار وجمعت كل المفردات المستخدمة. وردت هذه المفردات إلى أصولها الشعبية.. ووجدت كلمات من لغات قديمة.. فرعونية وقبطية وإغريقية. وعبرية..

واستنتجت من هذه الدراسة التى كان عنوانها «الموجز فى تاريخ الزار فى أفريقيا» أن أكثر تقاليد الزار فى مصر قد جاءت من السودان ومن المغرب فى القرن التاسع عشر..

وأصدر د. الفريدو لومباردينو دراسة بالايطالية عنوانها «دق الطبول

والزار» وفى نهاية الكتاب نشر فقرات من مذكرات أميرة مصرية.. تحكى تجربتها مع الزار وكيف أنه المسئول عن سعادتها الزوجية.. وكيف أنها أقنعت زوجها أيضا أن يجرب ذلك. حتى أصبح أكثر إدماناً منها.

وفى مذكرات الأميرة كتبت تقول إنها نقلت مجموعة من راقصى الـزار والكدية إلى إسطنبول وأنها تمكنت من شفاء جدتها التى لزمت البيت والصمت أكثر من عشرين عاما. وان جدتها الآن فى صحة جيدة. وأنهـا أصبحت أكبر ثرثارة فى الدنيا!

* * *

وفى يوم كنا نجلس فى مكتبة جماعة الاخوان المسلمين بإمبابة. وكنت فى ذلك الوقت أمين المكتبة. وكانت الساعة قد اقتربت من الفجر.

فسألنى أحد الأصدقاء: إن كنت ما تزال راغبا فى هذا المشوار.

قلت: يا أخى لا أصدق. ولكن أحب أن أعرف..

ـ أمامنا مشوار طويل. عندك إستعداد.. أو هل ستقول إنك تعبـان. وانك ذاكرت أول أمس والأسبوع الماضى وأنه ليس فيك نفس..

ـ مستعد تماما!

ـ هل تركب النيل؟ هل تأخذ التاكسى.. هل تمشى على الأقدام.

ـ أفضل أن نمشى..

ـ كم واحدا نحن.

ـ لا أعرف.

وكنا خمسة. واحد فى كلية الشريعة واثنان فى كلية الآداب واثنان من كلية الهندسة.

وسرنا خارج مدينة إمبابة فى إتجاه الوراق. الجو بارد. والنيل تخرج منه أبخرة رقيقة. والحقول أيضا. ولا أعرف بعد كم من الوقت وصلنا. وقبل أن ندق الباب قال أحد الزملاء: بعض المعلومات الضرورية.. إنه رجل فى الخمسين من عمره. متخصص فى الفقه الاسلامى.. عاش فى بريطانيا ثلاث سنوات. وفى أمريكا مثلها. تزوج. وماتت زوجته. وأولاده يعيشون فى الكويت. هو الذى رفض أن يعيشوا عالة عليه. وهو فى صحة جيدة جدا. وإن كان يبدو شاحبا.. وهو يكره التزمت الدينى. وله عادات غريبة من بينها أنه لا يحرم الخمر أحيانا. ومنها أنه لا يحب الكلام عن الخلافة الاسلامية، ولا أن يجىء رجال الدين فيحكموا الدنيا.. وقد كان من الاخوان المتشددين، أما الآن فهو من الاخوان فقط.. وهو يحترم الامام حسن البنا. ويرى أنه أصبح مثل الملوك والخلفاء قد التفت حوله حاشية السوء.. وأرجوكم أنا الذى سوف أتكلم وسوف أرد أحيانا نيابة عنكم.. فهو رجل متشكك فى كل شىء وكل أحد. وعنده أسباب معقولة لكل ذلك، والآن سوف أدق الباب..

وجاء صوت من الداخل: من أنت؟. إرفع صوتك وماذا تريد؟

فقلت: نحن إخوان فى الله. جئنا للسلام والتحية. فإن شئت جئنا بعد ذلك.. فى أى وقت تراه..

ـ من أنت.. من أنتم؟

ـ أنا الطالب حسن أحمد نجيب.. أنت تعرفنى.. ومعى إخوان فى الله.. سمعوا عنك فجاءوا يرونك فإذا تفضلت فلك الشكر وإلا عدنا من حيث أتينا..

ـ إنتظروا حتى أغير ملابسى..

ثم اقترب زميلنا هذا وقال: من المؤكد أنه قريب من الباب ليسمع ما نقول.. فلا تنطقوا بكلمة واحدة..

وبعد دقيقة إنفتح الباب. وكان الرجل فى بدلة كاملة وصديرى وكرافتة ووضع الزراير الذهبية فى القميص ولم ينس أن يرتدى البالطو.. وليس ممكنا أن يتم ذلك كله فى هذا الوقت القصير. طبيعى أن يكون قد وقف إلى جوار الباب يتصنت علينا..

وأدخلنا إلى غرفة وجدنا بها سيدة وفتاة فى مثل سننا، أى دون العشرين، وثلاثة من الرجال أحدهم أجنبى.. عرفت أنه ألمانى قد أسلم على يديه.. ثم كان زميلا له فى إحدى شركات البترول بالسعودية.. وطلب منى أن أقدم نفسى وزملائى.

ثم جلس متحفزا يقول: أنت جئت فى الوقت المناسب.. فنحن منذ صلاة الفجر نناقش نفس الموضوع.

ـ أى موضوع؟

ـ الزار. أنت ألقيت محاضرة فى مركز الاخوان المسلمين واستنكرت مثل هذه الخزعبلات والخرافات التى تتنافى مع الاسلام.. وأنا الآن أريد أن أناقشك.. لماذا هى تتنافى مع الاسلام.. لماذا تعتبر ما نفعله منافيا للاسلام.. نحن نقرأ القرآن فى هدوء.. وبعضنا يهتز طربا لذلك.. تماما كما يفعل غيرنا فى حفلات الذكر فى الموالد.. وكل الطرق الصوفية تفعل ذلك.. هل جاء ذلك من اليهود؟. أو أن الشيعة قد أدخلوه على الاسلام؟. أنا لا أعرف.. ولكن لا أستنكر أن يهتز أحد لذلك.. فالذين يتلون القرآن يهتزون يمينا وشمالا لا أثناء القراءة.. ولكن قبل أن يقرأوا.. وبعد أن يقرأوا.. أى يهتزون فى فترات الصمت.. ونحن نرى

الناس الذين يسمعون القرآن يفعلون ذلك فهل حرم الاسلام علينا أن نطرب للقرآن.. وأن نقول: الله.. ما أجمل كلام الله.. أو ما أجمل صوت القارىء..

قال الزميل: أنا لا أعترض على قراءة القرآن.. ولا على أن يهتز الناس لذلك.. ولكن أعترض على الاهتزاز المجنون..

ـ ومن الذى يهتز بجنون؟ أنا شخصيا أهتز بشدة متمالكا لكل قواى العقلية.. بل إننى عندما أهتز بعنف فإننى أساعد نفسى على أن تتخلص من تقلصاتى العضلية واضطراباتى النفسية.. إننا نذهب إلى الأندية الرياضية لنجد من يقوم بتدليك أجسادنا وتليين عضلاتنا.. ومن هذا الاسترخاء تتحقق لنا الراحة.. ويا حبذا لو كانت هناك موسيقى.. وأنا يا أخى أفضل أن يكون القرآن العظيم هو موسيقاى أثناء عملية التدليك التى هى إعجاب وطرب للقرآن الكريم..

ـ ولكنك تستخدم الطبول.

ـ أحيانا.

ـ وما علاقة الطبول بالقرآن الكريم؟.

ـ وما علاقة دقات القلب بالقرآن الكريم.. وما علاقة انتظام التنفس.. وما علاقة أن تدق بيدك على المنضدة وأن تستمع إلى الموسيقى.. إن هذه الطبول الهادئة هى تنظيم للتنفس وفى نفس الوقت تهز الأعصاب وتجعل الاستعداد للخشوع أكثر.. ان المسيحيين يدقون الأجراس ويعزفون الموسيقى فى الكنائس، وكذلك اليهود، ومعظم الديانات القديمة.. وليس ذلك إستخفافا بالدين.. وإنما هى وسيلة لاشاعة النشوة والتأثر.. انها وسائل تساعد على ذلك.. كما يؤدى صوت ملايين الحجاج

والمطوفين إلى هز القلوب فى محبة الله.. وليس الناى الذى أستخدمه إلا صوتا حزينا، وليس الحزن والشجن إلا لمسا لأعماق المؤمنين.. والشرقيين بصفة خاصة.. فنحن لم نفعل أكثر مما يريده أى إنسان يخشع لله.. وفى أحد الأيام كنت فى مولد السيدة زينب.. ولقيت أحد الصوفية القادمين من السودان. وقال لى إن إبنه أقام حفلة زار فى لندن وأنه استخدم بعض الموسيقى الغربية.. ولم يكن فى حاجة إلى كدية.. بل أكثر من ذلك أن الموسيقى الغربية بصوتها المرتفع وطبولها ونفيرها والرقص نفسه ليس إلا نوعا من الزار العنيف.. ولكنه متطور.. ولا يمكن أن يكون إقبال الشباب على ذلك، بسبب أنهم مرضى.. ولكن بسبب أنهم يريدون أن ينطلقوا.. ومن الذى لا يريد ذلك دون الاضرار بأحد من الناس؟

قلت: لا مؤاخذة أنا لا أعرف ما هو الموضوع بالضبط. هل أفهم أن حضرتك..

ـ لا تقل حضرتك.. قل الأخ..

ـ .. إن الأخ يقيم حفلات زار. ويتلو فيها القرآن بمصاحبة الموسيقى؟..

ـ شىء كهذا.

ـ إذن فما الذى يفعله الأخ إذا فوجىء بأن أحد الموجودين قد خلع ملابسه كاملة وراح يضرب رأسه فى الحائط.

ـ فى هذه الحالة نتوقف عن تلاوة القرآن الكريم ونتركه يصرخ حتى يستريح بعد ذلك..

ـ هل حدث شىء من ذلك؟

ـ كثيرا.

ـ رجال ونساء؟

ـ رجال فقط.. أقدم لك الأخت.. إنها من دمشق.. جاءت لتدرس «الزار الشريف».. هذا الزار الذى أقدمه وأشترك فيه مرة كل أسبوع.. وليس من حق أى إنسان أن يجىء إلى هذا البيت. هناك شروط..

ـ أية شروط..

ـ أولا يجب أن أعرفه. وأن أتأكد أنه جاد.. وأن لديه استعدادا لأن يتأثر بالقرآن الكريم. وأنه مؤمن. بل أكثر من ذلك يجب أن يؤمن إيمانا مطلقا بأن القرآن شفاء النفوس..

ـ وهل شفى أحد من الناس؟

ـ كل الذين عرفتهم.. أنا شخصيا كنت أشكو من تقلصات فى المعدة والمصران الغليظ طول حياتى.. ولكن عن طريق تلاوة القرآن والموسيقى الهادئة والاهتزاز الخفيف.. أصلح الله سبحانه وتعالى معدتى وأمعائى.. والأخت كانت تشكو من ضيق فى التنفس.. وأحيانا تنزف من أنفها.. ذهبت إلى كل طبيب.. وهداها الله إلى العبد الفقير.. فكان شفاؤها بكلام الله ومشيئة الله.. والأخ الألمانى يعمل فى إحدى شركات الأدوية.. أظن شركة باير.. إنه كيماوى هداه الله إلى الاسلام.. وتداوى بالقرآن.. وشفاه الله.. وأنت الذى تشكك فى هذا الذى قلته لك.. إسأل والدك كيف شفاه الله..

قلت: كم مرة خلع الناس ملابسهم كاملة.. وكم مرة مزقوها.. وكم

مرة قالوا : إن عفريتى حضر.. وكم مرة سقطوا على الأرض يتكلمون لغة غير مفهومة.. وهل وجدت صعوبة فى إعادتهم إلى حالتهم الطبيعية..

قال : يجب أن أنفى عن نفسى تماما أن الذى نقوم به هنا هو «الزار».. الكدية وعفريت يحضر.. والأسياد.. وذبح الخراف والديوك وتلطيخ الوجوه والأجسام بالدم.. وإن كنت أرى أن الانسان دموى بتكوينه.. فهو يذبح الطيور والحيوانات. ويرى الدماء تنزف منها.. وهى تموت بين يديه ثم يأكلها.. والانسان قاتل.. والانسان يحارب ويقتل بالملايين.. وأكثر الذى يقتله الانسان هو الانسان.. ولابد أن الانسان ما يزال متعطشا للدماء.. وليس الزار إلا طبول الحرب.. وليس بعد الطبول إلا الدماء.. وكل من يشترك فى حفلات الزار ليس إلا شخصا راغبا فى أن يقتل شخصا آخر.. أو كل الناس انتقاما لما أصابه فى بيته وفى عمله وفى عقله وفى قلبه.. إنها معركة دموية تنتهى بأن يصفى كل واحد حسابه مع الآخرين.. ولا أرى أن ذلك عبث أو خرافة.. وإنما أرى أنه مثل الأحلام تحقق رغبة قوية وأملا بعيدا.. وكذلك الزار هو نوع من أحلام اليقظة العنيفة.. والذى عندنا هو أحلام يقظة ولكن بغير عنف.. ولو سقط واحد على الأرض.. أو حتى مزق ملابسه وهو يتصور أنه مزق ملابس غيره.. أو حتى يمزق غيره.. فنحن على يقين من كل ذلك.. نعرفه مقدما، ولا نستنكره إذا حدث.. كلنا فعلنا ذلك.. وأنا أيضا.. وعندى ملابس كثيرة تمزقت واحترقت.. ومعها استرحت نفسيا. وعرفت فيما بعد من الذى مزقته أو تمنيت ذلك.. ومن الذى أحرقته أو اشتهيت ذلك.. صدقنى هذا علاج طبيعى.. وليس بيننا واحد يدعى الطب.. ولكننا أصحاب تجربة فقط.. إننى قرأت قصة عن بلقيس ملكة سبأ.. قيل إنها ذهبت إلى سليمان عليه السلام فى القدس.. وقيل إنها تهيبته تماما. فهى ترهب قوته وعظمته.. ولكى تتمكن من مواجهته.. استحمت

باللبن ووضعت فى اللبن العطور والبخور.. ثم عادت وذبحت الأغنام وغسلت قدميها فى دمها.. ثم استحمت.. وطلبت إلى المطربات والمطربين أن يشعلوا النار حولها.. وأن يصرخوا.. وأن يحرقوا البخور.. ويقال إنها ظلت تصرخ حتى سقطت على الأرض.. ثم ألقوا بها فى حوض من اللبن الدافىء.. وقامت عشرات الفتيات بتدليكها وإعدادها هادئة جميلة واثقة من نفسها قبل أن تلقى الملك سليمان.. وكل هذه القصة ليست إلا حفلة زار، وإن لم يصفها أحد بهذا الاسم.. إنها صرخت وتمزقت واستراحت عضلا وعصبا ونفسا وعقلا.. وأحست أنها قادرة على لقاء أحكم وأقوى الملوك فى التاريخ..

ـ أنا سمعت من أستاذ عندنا فى كلية الهندسة كان يعيش فى بريطانيا أن المهندسين والعمال البريطانيين عندهم مشكلة الآن.. فكلما تقدم العلم أصبحت الآلات أقل صوتا.. حتى أن الانسان يمر إلى جوار المصانع فلا يعرف إن كان مصنعا.. وأصبحت مشكلة العامل البريطانى أنه يفتقر إلى الضوضاء.. وأن الصمت أصبح مملا.. تماما كما يضيق سكان الأودية باستواء الأرض ويحلمون بالهضاب والجبال.. ولذلك فالعمال والمهندسون يقضون يوما واحدا للعلاج.. هذا العلاج عرفته الأم الفرعونية منذ وقت طويل.. فلا يكاد الطفل يولد حتى يقوم أقاربه بدق الهون والحلل بالشوك والسكاكين بالقرب من أذنيه، إن هذه الضوضاء تنبه أعصاب الأطفال وتشدها وتقويها.. وكذلك فى المصانع البريطانية يدخلون عشرات العمال والمهندسين فى إحدى الورش.. ذات الآلات القديمة التى لها دوى وضجيج.. والغرض من ذلك إرهاق العامل.. حتى يصبح راغبا فى النوم العميق.. أو الراحة التامة.. وقد لاحظ الأطباء أن العمال يصرخون ويدقون الجدران.. ولكنهم لا يبرحون الغرفة.. أى أنهم يصرخون من الضوضاء ويريدونها.. لأنهم فى حاجة

إليها وإلى الراحة الطويلة العميقة منها.. وليس الزار إلا شيئا من ذلك.. هل ترى هذا التفسير مقبولا عندك؟

قال صاحب البيت: أقبله وأشكرك عليه.. وأريد أن أعود إلى شىء عرفته أخيرا.. يوضح أكثر ما سبق أن قلته الآن.. زرت صديقا متصوفا. وحضرت حفلة ذكر عنيفة. ففيها الطبل والمزمار والناى ووجدت الذين يذكرون الله واقفين يرددون كلمات أغنية.. أو نشيدا عن الصبر.. من مثل: سلام.. حرام.. وداع.. الموت وحدى.. حرام أنا على الجوع والموت وحدى.. فاقترحت على صديقى الصوفى هذا أن يجرب الأسماء الحسنى مع الذكر والموسيقى.. وجرب ذلك. وقال إن بعض الاخوة كانت تنتابهم حالات من التشنج وأحيانا من النشوة والتجلى.. وكان يخاف عليهم أن يصابوا بمكروه فكان يخرجهم من القاعة.. ومن الغريب أنهم يشربون القهوة السادة.. فهى تنبههم وهى تغسل عقولهم.. ومن هذا الغسيل العقلى تتحقق الراحة التامة.. وأنا على يقين من ذلك..

قلت: قرأت بحثا للعالمة الأمريكية الجليلة مرجريت ميد. فقد روت تجاربها فى جزر فيجى.. ولاحظت أنه فى الليالى القمرية يرقص شباب القبيلة ثم ينامون بعد وقت قصير. وقد فسر بعض الناس ذلك بأثر القمر على أعصاب الشباب.. وبعضهم فسر ذلك بالاسراف فى تعاطى الخمور.. والاسراف فى الجنس.. وقال بعض العلماء إن شروط الزواج فى هذه القبائل تحتم أن يظهر الشباب قدرته على الاحتمال.. فالشبان ينامون عراة على أرض من الحجارة المدببة.. وكثيرا ما نهض الشبان فوجدوا دماءهم تنزف صباحا.. وكثيرا ما مات بعضهم بسبب التسمم.. ولكن مرجريت ميد أثبتت شيئا آخر.. وهو أن هؤلاء الشبان يفعلون ذلك مرة واحدة فى السنة.. هذه المرة تكون بعد أيام طويلة من الصيد فى المحيط

وفى الغابات.. وفى نفس الوقت فى موسم الزواج.. والذى يحدث هو أن يتعاطى الشبان أعشابا منومة.. وبدلا من أن يناموا مباشرة فإنهم يرقصون ويطبلون.. وفى اليوم التالى يكون أكثر الشبان تحملا أكثرهم استحقاقا للزواج.. فالغرض هو النوم العميق من التعب.. فالموسيقى والرقص والصراخ يكون مرحلة إنتظار لسريان مفعول الأعشاب المنومة.. فالهدف هو النوم الذى يريح.. والنوم العميق الذى لا يجعل الشاب يشعر بوجع الأحجار أو الأشواك أو السهام المدببة التى نام عليها.. وفى هذه الطقوس كل صفات الزار.. وكل النتائج أيضا.. وتقول مرجريت ميد.. إن الموسيقى التى يستخدمها هؤلاء البدائيون هادئة هامسة.. وإن كاهن القبيلة يتلو على مسامعهم بعض النصائح أو الحكم.. والذى يصرخ منهم فإنه يلقى بنفسه على الأرض ويتمرغ ثم لا ينهض مرة أخرى.. إنهم أيها الأخ أقرب إلى نظريتك فى «الزار الشريف»..

وظهر السرور على وجهه. وطلب منى أن أبعث إليه بكتاب مرجريت ميد..

أما الرجل الألمانى فقد أبدى استعدادا للكلام. وطلب أن نجد له عذره لأن لغته العربية لا تسعفه كثيرا. ولكنه سوف يحاول.

قال واسمه د. البرت نويمان ويقول إنه من أسرة أمير الشعراء الألمان هيلدرلن وهو يحفظ أكثر شعره. قال: بسم الله الرحمن الرحيم صديقى المهندس المحبوب المبارك دعانا إلى بيته منذ يومين نتناقش فى هذا الموضوع صباحا ومساء.. وله هدف نبيل هو: أن الداء والدواء من أنفسنا وفى أنفسنا.. وأننا نحن الذين أتعبنا أجسادنا وأرواحنا بالمرض.. ونحن قادرون على الشفاء وله فى ذلك فلسفة.. فهو يشترط أن نبدأ بالسلام مع أنفسلنا.. وبعد ذلك بالسلام مع الناس..

وقال بعد صمت طويل : ولا سلام مع الناس إلا بالتواضع.. ولا سلام مع القلب إلا بمحبة الله.. انتهت فلسفة هذا الصديق.. وأما حفلات « الزار الشريف » فهى فرصة لتحقيق قدر من السلام الجسمى والنفسى والروحى ولو ساعة كل يوم.. وكما ينام بعض الناس نوما هادئا، وينام بعضهم بعنف.. وينام بعضهم بلا منومات.. وبعضهم لابد أن يتعاطى المنومات، فكذلك شفاء النفس يكون بهدوء ويكون بعنف.. وكما يضحك الناس بهدوء ويقهقه بعضهم.. فكذلك الراحة الهادئة والراحة المدوية.. وكما أن أناسا يجدون راحتهم فى الصمت فآخرون يجدونها فى الكلام.. وغيرهم يجدونها فى الحركة. وأن الواحد إذا تعب فإنه يفضل ألا يفتح فمه.. فبينما تكون المرأة مريضة، تكاد تموت ولكنها تستطيع أن تتكلم ساعات.. ومن الممكن أن تصح بسبب هذا الكلام.. وكما يحدث عندنا فى الضباب الشديد فإننا إذا سرنا فى الشارع يجب أن نتكلم وأن نرفع أصواتنا بالغناء حتى يتنبه الآخرون فلا يصطدمون بنا أو لا نصطدم بهم.. فهذا الغناء أو هذه الضوضاء هى وسيلة لنجاتنا من الصدام والصدمات.. وكذلك هذا الزار الشريف النظيف.. والحمد لله.. وأنا مستعد لأن يناقشنى أحد من الأبناء الأعزاء. وشكرا على حسن استماعكم وصبركم..

وقالت السيدة بلهجة شامية : والله عندى شىء صغير أضيفه. لو تفضلتم.. إسمحوا لى. كان عندنا فى حلب رجل طيب، هو الآن فى السجن. وتهمته ظالمة : فالرجل من أسرة شريفة. وهو من رجال الدين. وله إهتمامات بعلوم وفنون الأرواح واستحضارها واستدعائها. ولكن لم نسمع عنه أنه احتال على أحد أو أخذ مالا. أو اعتدى على سيدة. أو خدش حياء أحد من الناس. إنه رجل طيب. ولسبب ليس واضحا، اقتادوه إلى السجن. ولا يزال. وقيل فى ذلك الوقت إنه كان يشجع

الشبان على تعاطى المخدرات. وكان للرجل قصر كبير. فهو من أسرة غنية. وكان لهذا القصر قاعة كبيرة أصبحت مسجدا.. يقدم الطعام والشراب والمأوى والملبس لكل من يطلب ذلك.. فالله أعطاه المال، وهو يعطى المال من أجل الله.. هل كان الرجل حقا يستخدم المخدرات فى «حلقات الذكر».. هل هذا هو الذى شجع الشبان على التردد هناك.. هل تحسنت حالتهم النفسية والعصبية.. هل كان يقيم هذه الحفلات وكان الشبان يستغلون كرم ضيافته وطيبة قلبه ورحابة صدره ويتعاطون من المخدرات ما لم يكن يعرف.. أو هل كان يعرف ويسكت.. أما هو فأب لأسرة كبيرة ناجحة شريفة. وهو رجل يرعى الله. لا يدخن وطبيعى ألا يشرب الخمر.. هل لأن له رأيا سياسيا معلنا ضد الحاكم.. الله أعلم.. ولكن كان أخى الأكبر من الذين يترددون على هذا القصر.. وكانوا يضعون له الأفيون فى القهوة.. وكان يسهر ويذكر ويطرب ويتمايل ساعات طويلة.. ثم فجأة يسقط على الأرض فى نوم عميق.. حدث ذلك عشرات المرات. وكان أخى يقول إنه بعد ذلك يصبح قادرا على العمل ساعات طويلة.. ولم يكن الرجل يفعل أكثر من أن يقرأ هو القرآن بصوت هادىء جميل.. ثم إن رجلا آخر يقول بايقاع هادى: حى.. حى.. الله.. حى.. رحيم.. كريم.. حى.. حى.. ولما قرأت أخيرا أن الكثير من الشباب الأمريكى يتعاطى المخدرات ويصرخ على إيقاع الموسيقى.. وأن أكثر المقبلين على ذلك هم شباب الجامعات، أدركت أنه نفس الشىء مع فارق.. إنهم يفعلون ذلك بأمر الشيطان، أما نحن هنا وفى الشام فعلى هدى الرحمن.. وإن كانت الصعوبة الوحيدة هى كيف يكون الانسان منفعلا وفى نفس الوقت معتدلا أو متوزانا.. بل إن العواطف ضد الاعتدال.. فنحن فى اللغة نقول عطف وانعطف وتعاطف أى مال إلى جانب دون الجانب الآخر.. هذه هى الصعوبة الوحيدة.. ولكن الايمان

والتدريب الطويل.. والجو المؤمن الذى يسمح بذلك، كفيل بأن يجعل الزار شريفا ـ هذا إذا حرصنا على أن نحتفظ بهذه التسمية!

وكان صمت مفاجىء. وأمام الرءوس التى انحنت، فى وقت واحد، أدركنا أن هذه هى علامة النهاية. ليس بعد ذلك إلا الخروج.. وخرجنا دون أن نجد أحدا قد وقف أو مد يده للسلام..

وفى عودتنا لم نتكلم...

.. عاد الذين لا يعودون !

١

عندما نزل آدم وحواء إلى الأرض، نزل معهما الموت..

فالجنة لا تعرف الموت..

والحياة بعد الموت، حياة بلا موت..

ولكن على هذه الأرض تساقطت أوراق الشجر، ولم ترجع الأوراق إلى مكانها بين الأغصان.. وتحطمت الأغصان بفعل العواصف.. ولم ترجع الأغصان إلى مكانها بين الشجر.. وعندما تهاوت الأشجار نفسها، ماتت..

والنار تتأجج ثم تخبو.. ثم تتلاشى..

والشمس تخرج من جانب الأفق وتعلو، ثم تختفى فى الجانب الآخر.. تموت وتولد فى اليوم التالى وكذلك القمر..

ومن مئات ألوف السنين يرى الانسان كبار السن فجأة لا ينطقون.. وكذلك المرضى.. والأطفال..

إن شيئا ما يختفى فى الانسان، فإذا اختفى: انطفأ الانسان كما تنطفىء النار، وذبل كأوراق الشجر، ثم سقط كالأشجار..

والحيوانات أيضا: حيوانات تأكل الحيوانات.. وحيوانات تأكل الطيور.. والطيور تأكل الديدان..

إنها كائنات تختفى فى بطون كائنات أخرى..

والانسان يأكل النباتات ويأكل الحيوانات أيضا..

فالأحياء يعيشون على الأحياء.. أى أن الأحياء يقتلون الأحياء لـكى يعيشوا.. فالحياة ـ إذن ـ تعيش على الحياة..

فأنت ترى العصفور الصغير ينقر دودة ويبتلعها، ويزحف ثعبان فيبتلع العصفور.. وينقض صقر فيخطف بمخالبه الثعبان.. ثم يرتفع فى الهـواء ويترك الثعبان يسقط فوق حجر على الأرض فيتحطم تمـاما.. وبسرعـة يظهر النمل ويزحف على الثعبان ويفرز حامضا كاويا يجعل جلد الثعبان مثل نشارة الخشب.. ويرى الفلاح فى الحقل هذه المذبحة فيجهز علـى الثعبان.. وفجأة يهاجمه ذئب من ظهره ويغرس أنيابه فى عنقه. وهكذا..

ولم يجد الانسان علاجا لهذا الموت..

لأن الموت ليس مرضا، وإنما يجىء فى أعقاب المرض. ويجىء بغيـر مرض..

وهو فى أى وقت ولأى إنسان يجىء.. فهو ـ إذن ـ نهـاية الـكبير والصغير والمريض والصحيح والغنى والفقير، والظالم والعادل..

والانسان.. قاوم الموت.. وأمسك الحجارة وفروع الأشجار دفاعا عن نفسه وأهله ووطنه.. حتى لا يجىء الموت..

وجاءت الأمراض وقتلت ألوف النـاس فى لحـظة واحـدة.. وكذلك النيران.. والطوفان.. والجفاف والجوع.. والحروب.. فرأى الانسان ألوف الناس يموتون معا.. ولم يعد للانسان أنياب وأظافر يـدافع بهـا عـن نفسه.. وإنما اخترع الأنياب والأظافر من كل لون وحجم ـ من الابـرة إلى الصاروخ.

واخترع الانسان العقاقير.. فعاش ملايين الأطفال كانوا يموتون عند ولادتهم.. واخترع الانسان المستشفيات.. وعربات الاسعاف وغرف الانعاش.. كلها من أجل أن يبعد عن نفسه شبح الموت.

ونجح فى ذلك بعض الوقت..

أى نجح فى أن يبعد الموت بعض الوقت، فليست كل العقاقير قادرة على شفاء الانسان من كل مرض - فقط بعض الأمراض بعض.. الوقت..

وحتى إذا نجحت هذه العقاقير، فلابد أن يموت الانسان.

ويقال إن ملكا حضرته الوفاة فوجد حوله الأطباء ورجال الدين، فنظر إليهم ساخرا وقال: بل أريد أن يكون موتى طبيعيا!

أى دون إكراه من الأطباء ورجال الدين!

أذكر أننى طلبت من الأطباء ونحن واقفون حول سرير أمى، أنه ما دام الموت قد تمكن منها، ولم يبق لها فى الدنيا إلا ساعات، فلماذا لا تموت وهى نائمة.. فتكون نومتها الصغرى هى نومتها الكبرى - يرحمها الله فقد نامت وهى لا تدرى أنها ماتت!

ربما كانت هذه هى المساعدة الوحيدة التى قدمها الأطباء!

وأول قاتل على الأرض هو قابيل.. لقد قتل أخاه هابيل.

قابيل كان يعمل فى زراعة الأرض، وأخوه يعمل فى رعى الأغنام.

والحقد قديم بين الفلاح المشدود إلى الأرض لا يبرحها، والراعى الذى يتحرك من مكان إلى مكان. الفلاح وجهه طول الوقت فى الأرض يعمل ويزرع ويحرث ويحصد.. كل شىء يتغير حوله إلا هو.. أما الراعى

فهو ينتقل من مكان إلى مكان. وجهه فى السماء وأغنامه هى التى تبحث عن الأعشاب الخضراء. الفلاح لا يفكر ولا يتأمل والراعى يفعل ذلك. الراعى يقود عددا من الكائنات يسوسها ويحرسها من الذئاب. والفلاح منكفىء على الأرض محدود بها..

وعندما اختار الله أنبياءه اختارهم من رعاة الأغنام - من الساسة المتأملين المسالمين..

وفى التوراة أن الملك سليمان أحب راعية غنم. ووضعها بين عشرات من جواريه. ولكن هذه الراعية ظلت على حبها لفتى اسمر يعمل راعيا للغنم.. فالملك قد اغتصبها ولكنه لم يغتصب قلبها.. أعطته ما يريد، واحتفظت لنفسها بما تحب.. فقد سجلت هذه الفتاة شولاميت فى سفر «نشيد الانشاد» بالتوراة أول تمرد فى التاريخ.. لقد أقفلت قلبها فى وجه ملك، وفتحته لراعى الغنم..

وكان هابيل قد قدم قربانا إلى الله. وباركه الله. ولم يبارك قربانا قدمه أخوه.. فقتل الفلاح أخاه الراعى. وترك أخاه ملقى على الأرض. فجاء غراب وقتل غرابا. ثم راح يحفر له فى الأرض قبرا - درس لعل قابيل يفعل ذلك. وذهب قابيل وأخفى جريمته..

أما حكمة دفن الميت فلكى يستأنف قابيل حياته، وينسى أنه قاتل أو أن أحدا سوف يقتله. أو أنه سوف يموت.. فلم يكن قابيل قد رأى أحدا يموت..

إن الانسان ينسى الموت. موت الآخرين. وموته هو أيضا.

ولو تذكر الانسان الموت لفسدت الحياة، ولظللنا.. نتوقع الموت مع كل نسمة هواء، وكل لقمة وكل خطوة وقبل النوم وأثناءه وبعده..

ولكن الانسان ينسى أنه سوف يموت، ولذلك فهو حريص على الحياة وعلى المزيد من القوة والصحة والمال والمتعة..

وهان الموت على الانسان فى العصر الحديث. فعلى الرغم من حوادث الطريق والطيران.. وعلى الرغم من الحروب التى لم تهدأ منذ ألوف السنين.. فإن الانسان ينظر إلى الموت على أنه حادث بعيد.. أى يصيب الآخرين ولا يصيبه.. ففى كل يوم يذهب الانسان إلى عمله ويعود إلى بيته سالما.. فالموت بعيد.. ويركب الطائرة مرة بعد مرة.. ثم لا يصاب بسوء.. وينزل البحر ويصارع الأمواج ويعود إلى الشاطىء.. فالموت ما يزال بعيدا.. ويذهب إلى الحرب.. ويعود حزينا على زملائه وأصدقائه.. ويتغلب عليه الحزن والموت والتشاؤم بعض الوقت ثم ينسى..

فعلى الرغم من أن الموت كان قريبا، فقد ظل بعيدا عنه..

وعلى الشاشة يرى الموت فى كل الأفلام.. وفى نفس الوقت يرى صور المعارك الحقيقية.. ويرى الموت فى كل لحظة..

ولكنه قد اعتاد على رؤية الموت على الشاشة..

ولم يعد يفرق تماما بين الموت السينمائى والموت الحقيقى.. وكما اعتاد على رؤية الموت، اعتاد على الحروب، واعتاد على العنف والدم. فأصبح الموت بطلا سينمائيا، مثل الحب: صورة كاذبة.

أو الموت مثل الحب: نجم سينمائى كتبوا له الحوار والقصة وأخرجوه ليكذب على الناس بمنتهى البراعة. فهو يمثل الموت ويمثل الحب.. أما الحقيقة فلا هو موت ولا هو حب.. وإنما هو نائب عنهما، وقائم بأعمالهما..

ومعنى ذلك أن الموت أصبح بعيدا عنا ـ جعلناه بعيدا. لأننا نريده أن يكون كذلك ـ ونحن نريده كذلك لأننا نريد أن ننسى.. تماما كما نسى قابيل أنه قاتل أخيه..

والمنطق والغرور والخلود هى التى جعلت الانسان من أقدم العصور «يؤمن» بأنه لابد أن تكون بعد الموت حياة أخرى..

فالمنطق يقول له: ليس معقولا أن نولد ونموت هكذا.. كأننا أشجار أو كأننا حيوانات.. إذن فلابد أن نموت هنا لنستأنف الحياة بعد ذلك. فالموت هو انتقال بين حياتين.. تماما: كالنوم الذى هو استراحة بين نهارين.. فالنوم هو موت الدنيا، والموت هو نوم الآخرة.. أو الموت هو النوم القصير، والموت هو النوم الطويل. وكما أن النوم وسط بين يقظتين، فكذلك الموت وسط بين حياتين..

وغرور الانسان هو الذى جعله يتخيل أن حياته لها قيمة. وأنه ضرورى جدا لهذه الدنيا. ولذلك فلابد أن يكون له امتداد آخر. وأن تنمو الحياة على جسد الميت، كما تنمو البذور من التربة الخامدة الخاملة. والانسان عندما يكون له أولاد، يرى فى ذلك ولادة جديدة له.. يرى أولاده امتدادا له. والذى ليس له أولاد، يشعر أنه نقطة فى نهاية سطر قصير. وأنه انتهى.

ولذلك كانت الديانات القديمة كلها تؤكد أن للانسان حياة بعد الموت. وأن الانسان سوف يعيش نفس الحياة. ولذلك نقلوا إلى قبره كل مقتنياته من ملابس وأدوات للطعام والشراب. تماما كما يتزود المسافر من بلد إلى بلد.

وربما كانت أبرز صورة لذلك: الديانة الفرعونية. فالميت ليس

إلا مسافرا فى رحلة طويلة. ويجب أن تكون هذه الرحلة آمنة حتى لا يصاب بضرر. ولذلك كان الفراعنة يحرصون على ألا يتشوه جسد الميت: لا خدش ولا كسر، لا فى العين ولا فى الأذن ولا فى الأصابع، حتى إذا بعث إلى الحياة كان سليم الأعضاء قادرا على استئناف حياته من جديد..

ولكى يستأنف الانسان حياته الثانية، لابد أن يتخفف من كل متاعب الحياة الأولى. وأن يكون خاليا من الهموم والأمراض، وأن تكون روحه قد عرفت السلام والهدوء.

ولذلك كانت الدعوات منقوشة على جدران المقبرة والتابوت.

وبعض الديانات القديمة رأت أن الحياة لا تتوقف وإنما تتحور وتتحول بأشكال مختلفة.. فالأبقار تأكل البرسيم، ونحن نأكل الأبقار. ثم تجىء الحيوانات المفترسة فتأكلنا.. أو يجىء الموت فيخطف أرواحنا، ثم نلقى بموتانا فى الأرض.. وتأكل أجسادنا الديدان.. ثم تأكل الأرض هذه الديدان، ومن هذه الأرض ينبت البرسيم وهكذا.. فالحياة لم تختف. وإنما ظهرت بأشكال متعددة..

فالديانات القديمة رأت أن الانسان عندما يموت فإن روحه تظهر فى شجرة.. أو فى حيوان.. أو فى إنسان.. وعن طريق الظهور فى أجساد أخرى فإنها تتغير وتتطهر.. فالروح تغير الأثواب التى ترتديها.. تماما كما يدخل الانسان السجن فيخلع ملابسه ويرتدى ملابس السجن الخشنة.. وبدلا من أن ينام على سرير ينام على الأرض.. وبدلا من أن ينام فى غرفة ويأكل فى غرفة ويتبول فى حمام، فإن كل ذلك يتجمع فى مكان واحد، ويشاركه عشرات آخرون.. فالانسان يتعذب لأنهم قد أدخلوه فى ملابس أخرى.. فى قيود مادية أخرى.. وبعد أن تتطهر هذه الروح

فإنها تنتقل بالموت إلى أجساد أخرى.. من الحيوانات ومن البشر.. وقد يبقى ذلك عشرات أو مئات السنين.. حتى يتطهر الانسان تماما.. وقد تكون له حياة أبدية..

ويرى علماء الأرواح أن هذه النظريات القديمة صحيحة. فكثيرا ما لاحظ علماء الروح فى جلساتهم الروحية أن «الوسيط» قد تلبسته أو تقمصته أو تجسدته روح أخرى.. هذه الروح تقول إنها روح فلان الذى توفى من عشرات أو من مئات السنين.. وكثيرا ما ذكرت الروح ، أنها تعبت من الدوران فى هذا الكون، وأنها تريد أن تستقر فى أى جسد!

وكثيرا ما فوجىء علماء الروح بأطفال صغار لهم أصوات غليظة.. وتكون دهشتهم أعظم عندما يقومون بتنويم هؤلاء الأطفال فيكتشفون أن أرواحهم كانت قد عاشت من مئات السنين. وتكون المفاجأة أكبر عندما يتكلم الطفل عن وقائع تاريخية حدثت على زمانه، أى يوم كان يعيش فى جسده وقبل أن يموت..

وفى كتب علم الأرواح حوادث كثيرة من هذا النوع. فطفل راح يصف لهم بيتا فى مدينة تبعد عنه ألوف الكيلو مترات، ومن المستحيل أن يكون قد رآها.. فيصف البيت والشارع ويروى التاريخ والوقائع ثم يحدد الكتب التى روت هذه القصص.. ويروى كيف قتل.. وكيف عذبوه قبل أن يقتلوه..

وعند مراجعة هذه البيانات التى أدلى بها الطفل ـ ومئات غيره ـ تكون صحيحة تماما!

أليس هذا دليلا على أن روحا سكنت جسدا جديدا، واستأنفت حياتها وعذابها فى جسد آخر، تمهيدا لموتة ثانية، وحياة ثالثة.. وهكذا!

والانسان يحلم بأن يكون خالدا على هذه الأرض.. فكانت الأهرامات أعظم المقابر فى التاريخ.. وكانت النقوش على الجدران - وهى رسائل يبعث بها الموتى إلى أجيال بعدهم، وفى نفس الوقت إلى موتاهم الذين سيبعثون إلى الحياة بعد ذلك.. وكانت التماثيل، وكانت الأعمال الأدبية والفنية وكان الأولاد - كأن ذلك استئناف للحياة بشكل آخر، بعد أن يكون صاحبها قد غاب.. أو انتقل إلى ما بعد الموت أو إلى ما وراء القبر.. أو يتجه من هذه الضفة إلى الضفة الأخرى..

وجاءت الأديان السماوية تؤكد هذا المعنى..

ربما كانت الديانة اليهودية أقل وضوحا عندما تحدثت عن الحياة بعد الموت.

فبعض المذاهب اليهودية ترى أنه لا حياة بعد الموت. وأن الحياة الدنيا، هي البداية والنهاية. وعلى ذلك فلا جنة ولا نار. ولا ثواب ولا عقاب. إنما هى حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.. وبعض المذاهب اليهودية ترى أن هناك جهنم وجنة فى الآخرة.. وحتى جهنم هذه تتوقف عن إحراق الكفرة والعصاة يوم السبت من كل أسبوع - أى أن السبت إجازة مقدسة فى الدنيا والآخرة.

والمسيحية واضحة فى ذلك..

والاسلام قد أتى بتفصيلات كثيرة عن البعث والنشور وعن الحساب وعن النار والجنة. وعن الخلود فى النعيم والجحيم. والنار لا تشبع من ضحاياها : كلما قيل لها هل امتلأت تقول هل من مزيد.. كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها، ليذوقوا العذاب.. ففيها أنهار من لبن وخمر مصفى لذة للشاربين.. على الأرائك ينظرون.. تلمس فى وجوههم

نضرة النعيم.. لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما.. إلخ..

وليس فى الجنة موت ولا فى النار: إنما عذاب مقيم، ونعيم مقيم..

ولكن لابد أن يحاسب الانسان على الذى فعله فى دنياه. والحساب تصوره القدماء من ألوف السنين.. وظهرت المحاكمات على جدران القبور.. وجدران الكهوف أيضا..

ووزنت الحسنات والسيئات..

ووزنت الأرواح..

وأقيمت المحاكم العادلة. أو بدأت محكمة أول درجة فى القبر، فجاء ملكان: ناكر ونكير يسألان الانسان عن الذى قدمه وأخره..

ومن أجل هذا الحساب وخوفا من عذابه، كان على الانسان أن يستقيم وأن يعدل. ومن أجل الاستقامة والعدل والخير والسلام، وضع الانسان لنفسه مبادىء العدل والفضيلة وجاءت الأديان السماوية ورسمت الطريق إلى كل ذلك.

فهو - إذن - يعلم ما هو الخير وما هو الشر..

وهو الآن مسئول عن الذى يصيبه فى الدنيا، ويصيبه فى الآخرة. إنه مثل سفينة لها شراع.. الله خلق السفينة وخلق الشراع وخلق الماء والهواء.. والانسان هو الذى يوجه السفينة إلى الشاطىء أو يمضى بها دون توقف.. أو إلى قاع الماء.. إنه حر إلى حد ما، ومسئول إلى حد ما. وفى حدود هذه المسئولية يحاسبه الآلهة.. أو الله..

وقد استراح الانسان إلى هذه المعانى. واستقرت فى أعماقه ومعها

إيمان عميق بأن الموت نهاية كل حى. وأنه علـــى رقــاب العبــاد، كل العباد. وأن الانسان قد ولد ليموت. ومات ليعيش بعد ذلك..

وأن الموت عام.. أى لكل الناس..

والموت خاص ـ أى إذا مات إنسان فهو وحده الذى مات.. تمــاما مثل ورقة أو زهرة أو ثمرة ـ فتبقى الشــجرة فى مــوقعها، لتمــوت كل أوراقها وأزهارها، ثم تموت هى أيضا.. شجرة واحدة من ملايين وتبقى الملايين لتموت كل واحدة فى مكانها وفى وقتها!.

وفى لغات كثيرة لا يقولون فلان مات وإنما يقولون: انتقل.. أو ذهب.. أو رحل.. أو لم يعد..

وعلى الجانب الأيسر من رأسى توجد علامتان إحداهما غائرة.. إنهــا إصابة قديمة. أما السبب فهو هذه الفوارق اللغوية التى لم أكن أعرفها طفلا صغيرا. فقد سألتنى جدتى إن كان خالى فى غرفته فقلت: لا.. بل طلع..

وفجأة فقدت وعيى وأضاءت نجوم وشموس أمام عينـــى، وتحــولت الدنيا إلى حريق.. أو محيط من الدم.. وتبعتها صفافير فى أذنـــى.. وفى كل جسدى.. وبعد وقت لا أدرى كم بلغ، وجدتنى نائما علـــى الأرض. مغطى باللحاف والبطانية. وكانت الدنيا صيفا شديد الحــرارة. وإلــى جوارى أمى.. وكانت تبكى. ولم يكن من عادتها أن تفعــل ذلك. فقــد اعتدنا نحن الاثنين: هى تصرخ وأنا أبكى.. هـــى تصرخ لشــقاوتى فى تسلق الأشجار ونزول النيل مع أننى لا أعرف السباحة، وأنا أبكى لأنها تنهال ضربا على جسدى بأى شىء فى يدهــا.. وكل الذى فى يدها كثيــر جدا إبتداء من حذائها وحذائى والمقشات وسعف النخيل..

وسألت أمى : لماذا ؟

فقالت : لا شىء. يا ابنى..

ولم أفهم شيئا مما قلته أنا لأمى.. فقد قلت لها : لقد رأيت أختى.. إنها جميلة جدا.. لقد رأيتها متزوجة ابن عمها.. ولم تكن سمراء لقد كانت بيضاء.. وقالت لى إنها حزينة لأننى لم أجلس معها وقتا طويلا.. أين هى؟.. وهى تسلم عليك.. ولا تسلم على جدتى.. وبيتها أوسع وأجمل من هذا البيت.. وعندها أولاد صغار وشعرها طويل.. وأجلستنى على حجرها.. وأعطتنى تفاحة أكلت نصفها.. والنصف الثانى وضعته فى جيبى لكى أعطيه لك..

وتتضاعف دموع أمى على خدها. ولكنها لا تقول شيئا. وإنما تقدم لى أكوابا من عصير الليمون..

وكانت أختى هذه قد ماتت منذ سنوات.. وكنت أحبها.. أو كنت أتمنى أن يكون بينى وبينها حب.. ولكن أمى، لسبب لم أعرفه، لم تشأ أن تكون بينى وبينها علاقة.. فقد كانت أختا غير شقيقة..

أما الذى حدث لى، فقد عرفته فيما بعد. فقد ضربتنى جدتى على رأسى. وسال دمى. وأغمى على. وظللت أنزف فى الأرض، دون أن تحاول هى أو أى أحد إنقاذى، حتى جاء الأطفال وأخبروا أمى. أما غلطتى فهى أننى قلت إن خالى : طلع.. ولم أقل إنه : خرج..

فالطلعة والطلوع تطلق فى ريف الدقهلية على جنازة الميت.. ولم أكن أعرف ذلك !

٢

ومن قديم الزمان يشار إلى الميت بشىء من الاحترام والخوف.

فالذى مات، لم يعد طرفا فى خير أو شر.. ولذلك فلا أحد يشعر له بالرغبة أو الرهبة.. انتهى.

وفى لغتنا عندما تسأل عن إنسان مات فيقال لك: حياتك الباقية.. تعيش انت.. ربنا افتكره..

وهناك إحساس قديم بأن الموتى لم يذهبوا تماما.. إنهم هنا وهناك.. أى إنهم بين أقاربهم.. وهم يحومون حول البيت وحول الفراش وحول الأولاد.. ولذلك يجب ألا يجرحهم أحد.. أو يؤذى مشاعرهم.. وأن يتذكرهم دائما بكل ما يفرحهم ويسعدهم..

وفى القبائل البدائية فى أفريقيا وآسيا.. أن جسد الميت أو جثمانه تلتقى عنده القداسة والخوف.. فالناس يصلون أمامه ويركعون ويسجدون.. وفى نفس الوقت يخافون أن يلمسوه.. فقد يكون ملاك الموت.. أو الموت ما يزال متربصا بأحد من أقاربه.. ولذلك فهم لا يقربونه.. حتى لا تنتقل إليهم «عدوى» الموت..

وفى كتاب «الغصن الذهبى» للعالم الكبير فريزر يقول: إن قبائل قليلة جدا كانت تنهال ضربا على الميت.. بعد أن يغطوا وجهه.. حتى يطردوا الموت أو الشر من جسده فلا يلحق بأحد منهم..

وربما تولدت عادة إحراق الجثة للتخلص من هذه المخاوف..

وإحراق الجثث موجود فى الديانة البوذية وانتقل منها إلى المسيحية.. فهم يحرقون جثة الميت، ويحتفظون بقليل من رماده فى زجاجة.. أو ينثرون هذا الرماد فى الأماكن التى كان يحبها المرحوم..

لا أنسى يوم ذهبت أتفرج خارج مدينة مدراس الهندية على احتفال مهيب بإحراق جثة العمدة.. فالجثة نقلوها على عربة. والمكان قد وضعوا فيه كوما من الأخشاب.. ووراءنا كانت الزهور.. والأرض قد كنست تماما.. والناس بملابسهم البيضاء.. وقد كساهم الحزن بياضا على بشرتهم الصفراء. والعيون لامعة قوية فاحصة.. وجاء من يضع الأخشاب فى ترتيب خاص.. ثم يضع عليها الدهن.. فتتعالى النيران.. والخشب يئن.. ثم يضعون الجثة وسط الدخان واللهيب ويلقون عليها مزيدا من الدهون.. والناس يبكون والنساء يصرخن.. والكاهن يؤدى واجبه بإخلاص.. كلما تعالى الدخان وتطاولت ألسنة النيران عاجلها بالدهن.. وهمس جارى يقول لى: ليس قبل أن تسمع فرقعة ينصرف هؤلاء الناس!

أما الفرقعة فهى عندما تبلغ النار رأس الفقيد فينفجر رأسه. ويكون للانفجار صوت. وهم يرون أن هذا صوت إبليس وقد خرج من جسده. وبذلك يصبح الميت مطهرا تماما!

ورأيت جنازة صينية بوذية.. والناس يدقون الطبول ثم يطلقون الأصوات المزعجة حتى تطفش كل الشياطين بعيدا عن جسده الذى سوف يتجه مباشرة إلى السماء..

ورأيت فى بومباى بعض المذاهب الدينية تضع الموتى فوق الأسطح لتجىء الصقور والنسور فتنهشها وتأكلها.. وبذلك تساعد هذه الطيور

الشرسة على نقل الميت فى أحشائها بعيدا عن الأرض.. فتوفر عليه الرحلة الطويلة إلى السماء!

أذكر أننى عندما كنت فى سان فرانسيسكو أروى هذه النوادر لبعض الأصدقاء أن لاحظوا الضيق على وجهى. فقد تحدثت عن الموت فى كل مكان ثم بسرعة تحدثت عن موت والدى وعن خوفى على صحة والدتى.. فما كان من أحد الأصدقاء إلا أن نقلنى بسرعة من هذا الجو فى البيت إلى مكان آخر.. وذهبنا إلى حديقة جميلة.. لها أبواب عالية.. وفيها شوارع نظيفة أنيقة.. وبحيرات وكبارى وقنوات وأحواض للورد وتماثيل.. ثم أكشاك الموسيقى فى كل مكان - والأكشاك هى الغرف الكبيرة المستديرة ذات النوافذ من كل جانب وفى داخلها مقاعد.. ويبدو أن بعض الفرق الموسيقية تجىء إلى هذا المكان مرة كل أسبوع.. أو فى الأعياد القومية..

وعلى جانب من إحدى البحيرات الصناعية حيث الأوز والبط والأسماك تناولنا شايا مع بعض الحلوى.. وجاء رجل يبدو أنه من رجال الدين، يسأل إن كنا نريد شيئا. فشكره صديقى قائلا ومشيرا الى: إنما هو كاتب مصرى جاء هذه المنطقة لأول مرة.. وأراد أن يرى المقابر الأمريكية!

مقابر؟! نعم إنها أعظم تجارة رابحة فى أمريكا. فهم يبيعون الأراضى والمقابر. ويسألون الزبون: إن كان يحب أن تكون مقبرته، بعد عمر طويل، على الشارع أو على البحيرة، وسوط الورود أو تحت الأشجار..

ومن الغريب أن الأثرياء يذهبون ويختارون المقابر التى تناسبهم. ويدفعون غاليا. ويزورونها من حين إلى حين. كأنهم يتدربون على الموت.. أو كأنهم يستعجلون الموت.. أو كأنهم يريدون أن ينظروا إلى

أنفسهم بعيون الآخرين.. كأن الزبون يريد أن يعيش بعد الموت ولو لحظة فيتخيل ما سوف يقوله الناس عنه حين يزورون مقبرته، دون أن يضيقوا بذلك.. وكيف يستريحون إلى هذا الجو الجميل، وكيف يفتقدون صاحبه..

أو يقولون : يرحمه الله.. لقد كان ذا ذوق بديع.. فلم يترك لأحد أن يشترى له أرضا و.. أنه قد أعد كل شىء لنفسه!

وشركات دفن الموتى وبناء المقابر تتفق مع «الميت» على نوع العناية بمقبرته أو حديقته أو نوع الورود التى يضعونها على قبره.. كل أسبوع.. أو كل سنة.. ونوع الموسيقى والتراتيل التى يريدها.. وإن كان يحب أن يبعثوا البرقيات إلى أهله وأقاربه ينبهونهم إلى ذكرى وفاته.. وإن كان يحب أن يسجل بصوته كلمة يشكر فيها الذين جاءوا لزيارة قبره.. هذه الكلمة تتردد كلما زاره أحد.. إلخ.

ورأيت وصايا عجيبة.. من يوصى لكلبه أو لعشرات من القطط أو لخادمه أو لاحدى بناته دون بقية البنات بأن تقام لها وليمة إذا جاءت.. أو يقدم لها عشرات الزهور. أو بالسماح لها بأن تستضيف عشرين من الأصدقاء وأن يتناولوا العشاء أو الغداء.. أو يمنع زوجته وحماته من زيارته لأن ذلك سوف يحرك عظامه فى قبره.. وإن كان يجب أن يبكى أحد عليه أو يلطم خديه أو يتمرغ فى التراب..

وفى مدينة جنوة الايطالية توجد أفخم مقبرة فى العالم. المقبرة اسمها «كامبو سانتو» والمقبرة تطل على البحر.. وهى متحف لفنون النحت. فكل ميت له تمثال. وكل تمثال يعبر عن وظيفة صاحبه.. فهذا طيار.. وهذا طبيب جراح قد أقاموا له منضدة من الرخام وعليها جثة.. وحولها عدد من الأطباء.. وهذا فنان رسام أو نحات أو موسيقى.. وهذا رجل

حكيم عاقل.. جلس يتأمل الدنيا حوله.. وهذا رياضى. والدنيا كرة تحت قدميه.. ومات فى عز شبابه وهذه عروس.. وهذا طفل.. كل المعانى قد سكنت الرخام.. والذى يزور هذه المقبرة يشعر أنها متحف ولكن شاء أصحابها أن يجعلوا لهم وجودا فنيا.. فإذا كانوا قد ماتوا بشهادة الوفاة وتصريح الدفن، فإن الفن قد كتب لهم شهادة ميلاد أخرى.. أطول وأجمل وأبقى.. ولذلك فلا أحد يترحم على الموتى، وإنما ينشغل بالفن عن الموت.. ويتحول من زائر إلى ناقد، لأن الموتى اختاروا أن يكونوا تحفا فنية.. لاجثثا بشرية تحولت إلى لا شىء تحت التراب.

ورأيت «البقيع» فى المدينة المنورة.. إنها مقابر لعدد لا نهاية له من صحابة رسول الله والتابعين وأهل البيت.. والناس الصالحين.. وكلمة «مقابر» ليست تعبيرا دقيقا.. فلا توجد مقبرة واحدة فى البقيع ولا حتى فى كل المملكة السعودية.. فالسعوديون «وهابيون» متشددون. ويرون أن المقبرة حرام أن ترتفع عن الأرض. وإنما فقط أن يوجد حجر يدل على أن أحدا قد تمدد تحته فى التراب.. فالاسلام لا يقدس إلا الله.. فلا قداسة لأحد، لا نبى ولا ولى ولا ملك.. ولذلك فالناس عند الله سواء، كما هم فى الصلاة هم أيضا فى الموت.. ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى.. وينام الفقير والغنى تحت الأرض، دون تمييز بينهما..

ولم أكن أعرف ذلك تماما حتى ذهبت أزور قبر الملك فيصل يرحمه الله. وكانت السيول قد أغرقت مدينة الرياض. ولم يكن من السهل أن ينتقل أحد من الفندق إلى القصر الملكى حيث يتلقى ولى العهد وأفراد الأسرة المالكة العزاء فى شهيدهم الملك فيصل..

ومع واحد من رجال الحاشية ذهبت أرى قبر الملك فيصل.. ولم أفكر طويلا وأنا فى الطريق كيف أقاموا بسرعة ضريحا لهذا الرجل الحكيم

الذى قتله أحد الأمراء أخذا بثأر قديم.. أو لأسباب غير معروفة حتى الآن.. ولكن لم استبعد أن يكونوا قد أقاموا ضريحا، على أن يبنوا مسجدا بالقرب من الضريح بعد سنوات ـ أنا فعلت ذلك لأمى، فقد أقمت لها مقبرة ليلا، وأكملت المقبرة بعد دفنها.. وفى رأسى آيات قرآنية تتحدث عن الموت. يقول الله تعالى : ما أغنى عنه ماله وما كسب.. ويقول : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة..

وفجأة توقفت السيارة. وأشار السائق بيده.. إلى لا شىء.. فسألت : أين؟

قال مستنكرا : أمامك.

قلت : أين؟

قال : هذه الأحجار البيضاء..

قلت : فقط؟!

هذا هو القبر.. هنا يرقد الملك فيصل.. هكذا..

وقابل الرجل دهشتى بدهشة أعمق قائلا : إنه بشر.. مثل كل الناس.. الرسول سيد البشر دفن هكذا.. هذه سنة.. نحن لا نؤمن بما لديكم من أضرحة لأولياء الله الصالحين. هذا حرام.. كفر.. أنتم تصنعون الأضرحة للشيوخ وللساسة ولأى إنسان يريد ذلك.. بل أنتم الذين تقولون إن لديكم أضرحة للصوص وقطاع الطرق.. حرام..

وقال : لعلك تذكر أن حراس مسجد الرسول عليه السلام يمسكون العصا ويضربون بها الناس.. إنهم يدورون حول قبر الرسول كما يطوفون حول الكعبة ويقبلون الجدران والنوافذ.. هذا كفر يا أخى..

أذكر أننى قلت لصديقى الأمير سلمان بن العزيز أمير الرياض: هل تعلم يا طويل العمر أنه من فضل الله تعالى على الاسلام والمسلمين أن أحدا من الخلفاء الراشدين لم يدفن فى القاهرة..

فقال الأمير مندهشا: ولماذا؟

قلت: لو حدث ذلك لعبد المصريون هذا الخليفة.. ولاستغنوا به عن المسجدين: الحرام والأقصى ومسجد الرسول.. فنحن سلالة الفراعنة الذين عبدوا العجل.. فعبادة العجل تفكير مصرى صميم!

والرسول عليه السلام قد حرم بناء القبور بشكل بارز عن سطح الأرض. وإنما رأى «تسطيح» القبور - أى جعلها مساوية لسطح الأرض.. وكره «تسنيم» القبور.. أى جعلها بارزة عن سطح الأرض مثل سنام الجمل..

وإن كان الفقهاء يرون أنه يكفى أن ترتفع شبرا أو شبرين..

وحرم الرسول طلاءها بالجير الأبيض..

وكان الولاة يهدمون القبور ذات القباب وكذلك المساجد التى بها قبور.. فقد كان المسلمون يصلون حولها ويبتهلون، تماما كما فعلوا فى الجاهلية عند الأصنام!

والشاعر يسخر من هؤلاء الذين يصلون عند قبور الموتى وينادونهم ويناشدونهم أن «يتوسطوا» لهم عند الله ويتشفعوا عند الرسول. قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادى

ولو نارا نفخت بها أضاءت
ولكن أنت تنفخ فى رماد

ويقال إن سيدتين مسلمتين قد عادتا من الحبشة فجلستا إلى رسول الله تحدثانه كيف كانت الكنائس فى الحبشة وما بها من تماثيل ولــوحات على الجدران..

فقال رسول الله عليه السلام: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخــذوا من قبور آبائهم مساجد!

* * *

٣

زرت قبر الشاعر الايطالى دانته الليجيرى فى مـدينة «رافتـا» وكان القبر غرفة واحدة.. ليست لها نوافذ. وإنما يتزاحم فيها الناس فيـكون الهواء فاسدا. خانقا. كريها.

كأن الشاعر أراد أن يؤكد لزواره أن زيارة قبره هى المرحلة الأولى من ملحمته الشهيرة «الكوميديا الالهية» فـالمرحلة الأولـى: الجحيـم والثانية: المطهر.. والثالثة: الفردوس.

وأن الناس ما يزالون فى الجحيم، ما داموا أحياء.

وحاول كثير من رجال الآثار والسـياحة والفـن والأدب أن يجعلـوا للشاعر العظيم الذى مات فى أوائل القرن الـرابع عشر مـكانا أجمـل وأفسح، فكان الرفض قاطعا. فقد كانت هذه وصية الشاعر الكبير. الذى مات فاشلا فى الحب، وعاش شاعرا عظيما. ومن فشله فى الحب كانـت هذه الملحمة الخالدة. التى هى رحلة فى العالم الآخر يرويها للفتاة التى أحبها، وفضلت عليه شابا أصغر سنا وأتفه عقلا ــ وهذا هو المصـير المشترك لعدد كبير من الشعراء الرومانسيين فى كل العصور..

أما أجمل مقبرة لشاعر فهى تلك التى أقامتها إيران فى مدينة شيراز للشاعر الصوفى «سعدى مصلح الدين الشيرازى» الذى مـات فى آخـر القرن الثامن عشر.. وقد شاء أهل إيران أن يجعلـوا هـذه المقبـرة تجسيدا لديوانه المعروف «بستان الورد» فكانت المقبـرة هـى هـذا

البستان.. طويل الطرقات، عريض الفسيفساء.. كثير الورود والطيور.. جنة الألوان.. أما القبر نفسه فهو غرفة مفتوحة فى كل الجهات.. ملونة الأحجار والزجاج. وفى استطاعتك أن تجلس مستريحا سعيدا فى أى مكان ولديك إحساس وحيد، يكاد يكون أكيدا أن صاحب البستان سوف يجىء لاستقبالك.. وإذا لم يأت، فهو موجود فى كل وردة وكل عصفورة.

ذهبت إلى هذا البستان.. وفى يدى كتاب «بستان الورد».. وجعلت أقرأ حكاياته ونوادره ذات المغزى الأخلاقى الصوفى.. نثرا وشعرا..

لابد أن حياة هذا الشاعر فى نهايتها كانت على حافة الموت.. فقد تهيأ تماما لذلك. فلما جاءه الموت، خف للقائه.. فقد عاش سعدى متنقلا سنوات طويلة.. ووقع أسيرا فى أيدى القوات الصليبية وساهم فى بناء حصون طرابلس.. ثم عاد إلى بلاده.. ولزم البيت.. ثم الفراش.. ولما جاءه الموت رفع الغطاء عن جسمه.. ونزل من السرير الذى استقر فيه جامدا منذ سنوات.. وذهل الناس حول فراشه.. وسألوه فقال: جاءنى الموت فرأيت أن أرحب به..

ونزل من السرير وقطع الغرفة.. ثم غرفة أخرى.. ثم فتح الباب.. وخرج من الباب.. ووجد مقعدا أمام الباب.. وجلس معتدلا.. ثم مات!

* * *

٤

وفى باريس قبر نابليون.. أعظم قادة الحرب فى كل العصور.. وأعظم دعاة الثقافة والتشريع.. وصاحب أعظم الانتصارات والهزائم أيضا.. أسروه فى جزيرة الباا.. ثم مات فى جزيرة سانت هيلانة البريطانية.. ونقلوه بعد ذلك إلى مقبرة عادية.. ولكن الشىء غير العادى.. هو أن زيارة قبر نابليون لا يكون بالوقوف أمامه أو إلى جواره.. وإنما أن تطل عليه من شرفة فوقه.. فإذا أردت أن تنظر إلى القبر كان لابد أن تحنى رأسك!



٥

وفى مدينة «أجرا» بالهند رأيت أعظم وأروع مقبرة فى العالم. مقبـــرة «تاج محل».. إنها المقبرة التى بناها الامبراطور المغولى شاه جيهان» لزوجته الثالثة «ممتاز محل» التى ماتت وهى تلد ابنهـــا الـــرابع عشر سنة ١٦٢٩.

المقبرة من الرخام الأبيض. ولها أربع مآذن. والرخام مطعم بالأحجار الكريمة المسروقة. وقد استغرق بناؤها وقتا أطول من بناء هرم خوفو - حوالى ٢٣ عاما!

والمقبرة فى حديقة واسعة أمامها بحيرة صناعية كبرى. والطريق إليها ممدودة والأشجار عالية..

والضريح يحرك معنى واحدا لدى زائره: إنه رمز للوفاء العميق لملك أحب زوجته. فسرق لها الأحجار من كل مكان!

* * *

٦

فما الذى فى هذه القبور؟

لا شىء. تراب فوق التراب. فنحن تراب يمشى فـوق تــراب. مــن التراب خرجنا وإليه نعود..

عندما نولد يكون طولنا شبرين وعندما نموت يكون طولنا خمسة أشبار
ـ إذن فكل العذاب من أجل ثلاثة أشبار؟

نعم. ولو قدر لانسان مات أن يخيره أحد بين أن يعود إلى الحيــاة التى تركها وبين أن يبقى فى قبره، ما تردد لحظة واحدة فى أن يقفز إلى الحياة..

لأن أحدا لا يريد أن يموت.. ولذلك فالانسان حريص على الحياة بعد الحياة: أن يتخيلها وأن يحلم بها وأن يؤمن بها..

وأن يفتش عن الطرق إليها.. وعلماء تحضير الأرواح على يقين مــن أن الأرواح «تعيش» فى عالم آخر.. وأنهم قد استحضروا عــددا كبيــرا منها. عرفوا من هذه الأرواح كيف الحياة بعد الموت..

وكما أن الحياة قبل الموت درجات، فالحياة بعد الموت أيضا..

فالنبات له حياة والحيوان والانسان..

والطفل له حياة والشاب له حياة والرجل له حياة. فالانسان الــواحد يمر بدرجات مختلفة من الحياة.

وكذلك الحياة بعد الموت. فالانسان عندما يموت ـ هكذا يقول علماء الروح وعلماء الدين أيضا ـ فإن روحه تظل عالقة بجسده.. لأن الجسد هو «ثوب الروح».. ولا تفلح الروح فى التخلص من الجسد أى من الحياة المادية.. تماما كما يخلع إنسان ثوبه، فإذا لمسه بعد ذلك وجده ساخنا.. أو وجد به رائحة العرق أو رائحة الكولونيا.. فعلى الرغم من أنه خلع الثوب، فلا يزال أثره هو عالقا بهذا الثوب.

وكما أننا لابد أن نغسل الثوب حتى نتخلص من رائحة العرق. فكذلك لابد أن تتطهر الروح من أثر الجسد.

فقد اعتادت الروح على هذا الثوب.. أو على هذه الحياة.. وعلى مطالب الحياة ومخاوفها ـ أى على مطالب العقل والمعدة والقلب..

فإذا انفصلت الروح، فليس من السهل أن تتخلص بسرعة مما اعتادت عليه.. ويقولون: إن الروح تظل عالقة بالجسد بعض الوقت.. أو بالبيت.. أو بالأصدقاء والأقارب.. أو بدنيانا..

ويقال إنه حدث كثيرا عندما فتحت بعض القبور، أن وجدوا الموتى قد تحركوا فى داخل القبر.. واقتربوا من مدخله.. كأنهم لم يموتوا تماما.. أو كأن الروح قد عاودتهم بعض الوقت..

كاتبنا القديم بديع الزمان الهمزانى صاحب «المقامات» الشهيرة عندما فتحوا قبره وجدوه قد زحف عند مدخله، وعلى وجهه آثار الفزع.. ويقال إن أناسا كانوا يمرون بجوار قبره فسمعوا صراخا. ففتحوا القبر ليروا هذا المشهد العجيب!

ومخترع الديناميت الفريد نوبل صاحب جائزة «نوبل» المعروفة، أوصى بألا يدفن إلا بعد وفاته بثلاثة أيام، حتى يتأكدوا من أنه قد مات.

فقد حدث كثيرا أن دفن أناس لم يموتوا حقا!

ويقولون: إن بعض الموتى يسرعون بالنعش إلى القبر.. ولذلك يحس المشيعون أن النعش يكاد يطير بهم ويرفعهم عن الأرض..

ويقال، اجتهادا فى تفسير ذلك، إن الروح لم تنفصل تماما عن الجسم.. وإن هذه الروح قد استردت قوتها بل استمدت قوة أكبر عندما تخلصت من قيود الجسد.. فلم يكن ممكنا للميت أن يحمل النعش أو يرفعه عن الأرض.. لو كان حيا.. إذن فهناك قوة «إضافية» استردتها الروح بإفلاتها من قيود الجسد..

وكثير من الذين يقفون إلى جوار سرير المتوف يلاحظون أشياء غريبة لا يجدون لها تفسيرا.. بأن تظهر الصحة فجأة على وجه الميت أو تظهر الراحة والسعادة والابتسامة.. والنور يضىء كل ملامحه.. كأنه قد رأى أو سمع شيئا جميلا فظهرت السعادة على وجهه..

فيشعر أهل الفقيد بالراحة، لأن فقيدهم قد مات سعيدا، وأن الجنة مثواه. فقد جاءه الموت خفيفا. وأنه لم يتعذب. بل أسعده أن يموت.. وكثيرا ما جلس المريض قبل الموت بساعات يتلطف مع كل الأبناء.. ويستدعيهم واحدا واحدا.. ويوصى بشىء كأنه لم يعد مريضا.

ونحن نصف ذلك عادة فنقول إنها «صحوة الموت» أى الصحوة التى تسبق الغفوة، أو اليقظة التى تسبق النومة الأبدية.. أى «الوهج» الذى يسبق إنطفاء الشمعة أو المصباح أو «حلاوة» الروح..

وكثيرا ما أعلن أعزاؤنا من الموتى وهم فى أيامهم الأخيرة أنهم سوف يموتون اليوم أو غدا الساعة كذا والدقيقة كذا.. أو أنهم لن يموتوا قبل أن يصل أحد الغائبين من الأقارب والأولاد..

أعرف ذلك تماما. فقد كان أبى مريضا فى عوامة يملكها أحد اخوتى. وطلب أبى أن يرانى. وذهبت وسألنى: هل ظهرت نتيجة الليسانس يا ابنى؟

قلت: لا أعرف يا أبى ـ ربما غدا.

قال: إذا ظهرت فتعال لكى أفرح بك يا ابنى.

قلت: حاضر.. سلامتك.. ربنا يشفيك لتفرح بكل أحفادك..

وهز والدى رأسه شاكرا هادئا وكان شاحب الوجه..

وفى اليوم التالى ذهبت إليه واعتدل فى فراشه على غير عادته، وخلافا لقدرته ثم خرج من تحت الغطاء.. ووقف لأول مرة من شهور وقال: تعال يا ابنى أحضنك. ألف مبروك. نجحت طبعا؟

قلت: الحمد لله.

قال: وكان ترتيبك الأول؟

قلت: نعم.

قال: نجحت مع مرتبة الشرف الأولى؟

قلت: نعم.

ولم يشأ أن أساعده لكى يعود إلى سريره. وإنما هو الذى جلس على السرير ثم تمدد وتغطى لتكون آخر كلماته: الحمد لله.

* * *

٧

وفى سنة ١٩٧٥ هبطت طائرة متجهة من أمريكا إلى اليابان، فى مطار هونولولو. وجاءت عربة إسعاف. ونقلت أحد الركاب المصابين إلى أقرب مستشفى.. وفى اليوم التالى فتح المصاب عينيه فوجد عددا من الأطباء والممرضات. ثم أطبق عينيه.. وقد سمع الأطباء يقولون: إنه توفى ولابد من استدعاء زوجته وأولاده..

ولكن المصاب كان يشعر تماما بأنه ليس ميتا. وفى نفس الوقت لا يعرف كيف ينقل هذا الاحساس إلى الأطباء..

ثم فتح عينيه.. ورأى بوضوح كل شىء حوله.. وسمع قصته الحقيقية..

إنه الطبيب الأمريكى د. ريموند مود. كان فى طريقه إلى اليابان. اعترض الطائرة إعصار عنيف. كان مشغولا بالقراءة فنسى أن يربط حزام المقعد. هبطت الطائرة بصورة مفاجئة. وإرتطم رأسه بسقف الطائرة. وأصيب بنزيف وغيبوبة ونقل بعد ذلك إلى غرفة الانعاش وتولى الأطباء علاجه.. وتم علاجه..

وسمع من الأطباء حكايات غريبة..

قالوا له إنه كان هادئا وسعيدا جدا..

وسمعوه يقول: كل هؤلاء أحبائى.. ماتوا جميعا.. ولكنهم سعداء..

ولكن د. ريموند مود عندما عاد إلى أمريكا راح يسجل التجربة العنيفة التى مر بها. لقد أعلن الأطباء أنه مات. ولكنه لم يشعر بذلك..

وكل الذى شعر به هو أنه أحس كأنه انفصل عن جسمه. وأنه خرج من هذا الجسم. ثم ارتفع إلى سقف الغرفة. وأنه رأى نفسه ملقى على السرير. ورأى الأطباء الذين حوله.. وأدهشه أنهن طبيبات. ولما أفاق من الغيبوبة وجدهم رجالا. فسأل: عندما جئت إلى هذا المستشفى، لم يكن هناك طبيب واحد رجل.

فقالوا: صحيح.

ـ كيف عرفت؟

ـ رأيت ذلك وأنا ميت!

فضحك الأطباء. ولكنهم لم يعرفوا أنه كان جادا..

ثم قال لهم: إن إحدى الطبيبات كانت قد ربطت ذراعها إلى عنقها!

فقالوا: صحيح. كيف عرفت ذلك؟

وأخذ د. مود يفكر فى هذه التجربة. فلاحظ أنه لم يكن متأثرا بأى شعور دينى.. مثل الاعتقاد بأن هناك حياة بعد الموت. ولا أنه كان فى حالة من الهذيان. فالأطباء أكدوا له أنه كان فى غاية الراحة. وأنه لم يتوجع لكل الذى أجرى له.. وأنه كان مستسلما تماما..

وظل د. مود يجرى تجاربه على مئات من المرضى الذين نقلوا إلى المستشفيات بين الحياة والموت، بسبب إصابات عنيفة فى القلب أو المخ أو الفشل الكلوى ثم أصدر كتابه الشهير:

قد استمد معلوماته وملاحظاته من ثلاثة أنواع من الناس:

الذين «ماتوا» ثم عادوا إلى الحياة.

والذين كانوا «يحتضرون» أى قريبين من الموت، ثم ماتوا..

والذين كانوا يقفون حول المرضى فى ساعاتهم الأخيرة.

وهناك نوعان من الموتى:

الذين ماتوا طبيعيا. أى توقفت قلوبهم عن الخفقان، وتوقفوا عن التنفس وإنخفضت درجات حراراتهم وهبط ضغطهم الدموى، وطبيعى أن يعلن الأطباء أنهم ماتوا. وهم يفعلون ذلك من مئات السنين..

ثم الذين توقف عندهم المخ عن إصدار أى نشاط كهربى فإذا وضعناهم أمام جهاز رسم المخ، فإنه لا يسجل شيئا.

ورغم كل ذلك فقد حدث شىء غريب ألوف المرات ـ عادوا إلى الحياة بعد لحظات أو بعد دقائق..

ولما تأكد د. مود من معلوماته وأبحاثه أصدر كتابه الذى هز العلماء والأطباء ورجال الدين فى العالم كله، ولا يزال.

كتابه الأول عنوانه «حياة بعد الحياة».

وبعد سنتين أصدر كتابا آخر بعنوان «تأملات فى كتابى حياة بعد الحياة».

ثم صدرت عشرات الكتب وكلها تستأنف البحث الذى بدأه د. مود. وتضيف إليه أشياء جديدة.

والطبيب الأمريكى لم يكتشف شيئا غير معروف. غير أن أحدا لم يبادر بمثل هذه الدراسة. وقد ورد فى الكتب الدينية القديمة وكتب

الأساطير ما يدل على مثل هذه المعانى وعلى مثل تجربة الاقتراب من الموت أى «الاحتضار».. ثم الموت.. ولكن الناس ـ عادة ـ لا يحبون الكلام عن الموت. فهو حديث تنقبض له النفس. ثم إن هناك اعتقادا بين الناس، أنه ينتقل بالعدوى.. أى أن الكلام عن الموتى، أو حتى الموت، قد يكون معناه إحساس الانسان بأنه شخصيا اقترب من الموت.. وكأنه يتنبأ بذلك.

وأهم ما اهتدى إليه د. مود هو أن هناك إجماعا بين هؤلاء المرضى على:

أنه من الصعب على الواحد منهم أن يصف بالضبط ماذا حدث له. كل الذى يعرفه هو أن شعورا غامرا قد استولى عليه.. وأن هذا الشعور قد ملأ كل جسمه.. وأنه عندما يحاول أن يصف ذلك فإنه لا يدرى بالضبط فكل مشاعره هى خليط من الفيضان والضوضاء والأضواء والارتياح.. إنه شعور استغرقه وأغرقه لأول مرة فى حياته.. وأنه لم يمر بمثل هذه التجربة قط من قبل..

وأنه قد سمع الأطباء أو أقاربه يقولون بمنتهى الوضوح: إنه مات.. إنه انتهى.. وأنهم يبكون لذلك.. ولكنه فى نفس الوقت يشعر أنه لم يمت. فهو يدرى بهم ويسمعهم. ولكنه عاجز عن أن يقول لهم شيئا. وعاجز عن أن يفعل أى شىء. بأى شىء حوله.

وأن لديه شعورا بالراحة التامة والاطمئنان الكامل. ولم يعد يشعر بكل أوجاع الصدر والقلب والرأس. وأن وزنه خفيف. ولذلك لديه إحساس آخر بأنه من الممكن أن يطير من فوق السرير.

وأن هناك ضوضاء وأصواتا مختلفة تجىء من كل جوانب الغرفة.

وأحيانا يسمع أن هناك موسيقى هادئة تجىء من كل اتجاه.. أو أن هذه الموسيقى تصدر من الجسم.. وأن لديه شعورا بالرغبة فى النوم.. أو النهوض من الفراش وفتح النوافذ.. والخروج..

وأن لديه إحساسا غريبا طاغيا بأن قوة قد أخرجته من الجسم ودفعت به فى نفق مظلم.. أو سرداب طويل خانق بارد.. وأنه انطلق بسرعة هائلة خارج هذا السرداب..

أحد المرضى «مات» غرقا فى إحدى البحيرات.. وصف حالته بالضبط.. فقد أحس أنه يعلو ويهبط.. وأنه يشرب من ماء البحيرة.. وأن الماء يخرج من فمه.. وأنه شاهد نفسه فى مكان مرتفع من البحيرة.. أى رأى نفسه يغرق ولكنه فى نفس الوقت لم يستطع أن يفعل شيئا.. وأنه يدخل سردابا مظلما ثم يخرج منه..

وقال مريض آخر أصيب بنزيف داخلى إنه بعد أن خرج من الأنبوبة المظلمة الضيقة أحس بالارتياح الشديد.. وإنه رأى زوجته وأطفاله وتمنى لو يحتضنهم جميعا. ولكنه لا يستطيع.. وإنه رأى نفسه ملقى على الفراش. ورأى وجهه شاحبا ولم يكن يعرف أنه قد أصبح هكذا هزيلا تماما..

وقال مريض ثالث إنه يحس أنه منفصل عن جسمه.. ولكنه فى نفس الوقت مربوط بخيط أو بحبل.. أو بأنبوبة تشده إلى جسمه الملقى على الفراش.

بعض المرضى بعد أن أفاقوا من الغيبوبة أحسوا أنهم التقوا بأناس آخرين.. ماتوا قبل ذلك. وقد وجدوا أن لهم أجساما بيضاء.. كأنهم أشباح لونها أبيض.. وأن حوارا بغير ألفاظ قد دار بينهم. وأهم

ما قالوه، أن لديهم رغبة فى أن يطلعوهم على العالم الآخر..

وأن هذا الحوار قد كان طويلا..

وأن الذين عادوا إلى الحياة كان لديهم إحساس غريب بأن الموت ليس مخيفا. وإنما هو مرحلة انتقالية من حياة جسدية إلى حياة بلا جسد. حياة أخف وأرق وأهدأ..

وليس بين هؤلاء المرضى واحد لا يريد أن يعود إلى الحياة الجسدية، رغم كل ذلك..

* * *

٨

ولم أشغل نفسى بذلك. ولكنى فى نفس الوقت لا أستبعد.

فقد حدث لى مثل ذلك.. فقد اصطدمت سيارتى بكوم من الحجارة فى الطريق الصحراوى.. ودخل السائق فى الصحراء متفاديا سقوطها. ولا أعرف كم من الوقت مضى قبل أن أنتبه لما حدث.. فقد ظللت جالسا فى مقعدى كأن شيئا لم يقع.. فالسيارة كانت منطلقة بسرعة ١٣٠ كيلو مترا.. وعندما أحس السائق بالأحجار تحت السيارة، ضغط على الفرامل.. ولابد أنها أحدثت صراخا ودويا.. ولابد أننى اصطدمت بالسيارة من الداخل.. ولابد أننى لا شعوريا تساندت بيدى، لأن رأسى لم يرتطم بزجاج ولم أحس بشىء..

فقد أفقت على منظر غريب. فالطريق أضاء فجأة. ورأيت شوارع لم أرها من قبل.. ونافورات وأحجارا ملونة.. واندهشت.. فليس فى الطريق الصحراوى شىء مثل ذلك. وأقفت فوجدت السيارة واقفة ووجدت السائق بعيدا عنها. وكانت الدنيا مظلمة تماما. ثم جعلت أحملق فى المكان. فوجدت السيارة بعيدة عن الطريق المرصوف. تقف على الرمال. وأمامنا سيارة أخرى وأناس يحاولون أن يوقفوا السيارة المتجهة إلى القاهرة. ولابد أن السائق قد ظن أننى غضبت منه. فتركنى جالسا ـ ولم يشأ أن يحدثنى. وراح يحاول إنقاذ الموقف..

أما الموقف فهو أن السائق حاول أن يتفادى احجارا فى الطريق. فأصاب الحجر باطن السيارة. فحطمها وعطل عجلاتها وفراملها وتساقط

الزيت منها. وسمعته يحمد الله على أن السيارة لم تنقلب.

ولم أصدقه. فلابد أنه كان أسرع من ذلك..

ونزلت أسأل وعرفت أن سيارات أخرى قد اصطدمت بالأحجار. ووجدت سيارة أمامنا حاول أصحابها إصلاحها.. ثم دعوني أن أركب معهم. وتركت السائق على أن أبعث إليه بأحد يجر العربة إلى القاهرة..

وبدأت أفكر فى هذا الذى حدث.. فأنا لم أكن نائما.. ولو كنت نائما لأيقظتنى الفرامل القوية.. أو اصطدم رأسى بالزجاج الأمامى. من المؤكد أننى كنت يقظا. ولكن رؤية السيارة وهى تكاد تصطدم بسيارة أخرى صدمتنى.. أصابتنى بإغماء وقبل أن أصاب بالاغماء كما فهمت من السائق استندت بذراعى تماما فلم أصطدم بالسيارة أو بالزجاج.. وفى هذا الاغماء بدأت أرى هذا الذى رأيت، أو توهمت ذلك..

وقد بعثت بتفصيل كامل لهذا الذى رأيت إلى الطبيب مايكل سابوم مؤلف كتاب «ذكريات عن الموت ـ بحث طبى» فقد طلب إلى أصحاب التجارب الخاصة أن يبعثوا بما لديهم. وتلقيت منه ردا طويلا مفصلا.. ثم طلب منى مزيدا من الايضاح. وكتبت له وسألنى عن الساعات السابقة.. وعن الأفكار التى كانت تشغلنى فى ذلك الوقت وعن الذى سوف أفعله إذا عدت إلى القاهرة مبكرا.. وعن علاقتى بالسائق.. وعن الأسباب التى أدت إلى الجلوس إلى جوار السائق بدلا من الجلوس فى المقعد الخلفى.. وعن الحديث الذى دار بينى وبين السائق وعن الموسيقى التى كنت أستمع إليها.. وعما إذا كانت عندى أية رغبة سابقة فى الانتحار أو كانت لدى السائق..

وجاءنى رد طويل جدا..

خلاصته : أن من المؤكد أننى أصبت بإغماء شديد وأن هذا الاغماء قد حدث قبل أن أمد ذراعى أستند على الزجاج الأمامى المسيارة التى توقفت فجأة. وأن هذا حدث كثيرا جدا لمرضي فى المستشفيات نهضوا واقفين عندما كادت أجسادهم تقع على الأرض.. مع أنهم عاجزون تماما عن الحركة.. وأكد لى أن اللحظات التى جعلتنى جالسا فى السيارة لا أتحرك ولا أدرى ما حدث حولى : هى لحظات موت.. وأننى مت فعلا.. وأنه لا يستبعد أن يكون قلبى قد توقف بضع لحظات.. توقف تماما.. وأن هذه اللحظات هى التى جعلتني هادئا تماما، لم أنفعل مطلقا.. لا بعد الحادث ولا حتى بعد أن عدت إلى البيت.. ويفسر لى أيضا لماذا لم أنم تلك الليلة بأن جسمي لم يعد فى حاجة إلى راحة. فقد اشرفت تماما على الموت لحظات..

وأن هذا يفسر هدوئى التام عندما كنت أروى هذه الحادثة حين عدت إلى البيت.. فلم أكن منفعلا ولا منزعجا كأنها حدثت لواحد غيرى.. أو حدثت لى فى حياة سابقة.. أو كأنها حلم تخيلته.. وليس واقعا لأربعة أشخاص : السائق.. وثلاثة فى السيارة التى كانت واقفة أمامنا..

وفى البيت كان عندى ضيوف.. ولم أجد رغبة فى أن أروى ما حدث. ولاحظ الضيوف أننى مستريح تماما. كأن شيئا لم يزعجنى ويهددنى بالموت فى الطريق الصحراوى.

فقال أحدهم : طبعا بسيارة مرسيدس مكيفة الهواء.. ولابد أنك قطعت المسافة فى ساعة ونصف.

وقال ثان : الراحة وأكل السمك والبحر والوجه الحسن.. والتمدد على الشاطىء.. والا فمن أين جاء هذا الشباب والحيوية والنضارة..

ومن الغريب أننى كنت قد سافرت إلى الاسكندرية صباحا، ثم عدت

ليلا. وأننا وقفنا فى الطريق الصحراوى ثلاث ساعات.. وقطعت السيارة الصغيرة التى ركبناها ما تبقى من الطريق فى ساعتين..

وكان تعليق د. سابوم أن هذه تجربة لم تكن فى حسابه.. وأنه لم يصادف شيئا من ذلك فى حياته. فكل تجاربه ودراساته على المرضى الذين أغمى عليهم فى غرفة الانعاش أو أثناء العمليات الجراحية أو الولادة..

وطلب منى كلما وجدت معلومات جديدة أن أبعث بها إليه.. وأنه عند صدور كتاب له عن تجارب أخرى سوف ينسب لى هذه التجربة بحرفيتها فليس من اللائق كما يقول ـ أن يضيف بأسلوبه تغييرا أو تعديلا إلى الذى كتبه رجل صناعته الكتابة ودراسته الفلسفة ومنهجه التحليل المنطقى، وهدفه: فهم حقيقة الانسان ابتداء بنفسه وانتهاء بنفوس الآخرين..

وشكرته على ذلك..

ثم عاد د. سابوم يطلب معلومات جديدة عن طفولتى. لابد أنه يحاول أن يجد تفسيرا عميقا لهذا الذى حدث..

وأنا قد حاولت أن أعود من حين إلى حين إلى ما حدث.. وأسأل السائق. وأسأل أصحاب السيارة مرة أخرى، ثم الذين رأيتهم فى تلك الليلة عن الذى قلناه..

وأهم من كل ذلك: إن كان أحد منهم يذكر شيئا عن الذى قلته أنا. وكيف كان ذلك. فقد كنت، إنسانا مختلفا. ولما عرفوا هذه الحادثة أدهشهم أكثر هذا الضياء الذى كان على وجهى؟!

وقد حاول سابوم أن يؤكد لى فى رسالة مطولة أننى لو عدت بتفكيرى

قبل ركوب السيارة بدقائق، وراجعت كل الذى قلتـه، لـوجدت أننـى أحسست بأن شيئا مروعا سوف يقع.. أو بأننى سأموت.. أو عدلت إلى العودة بالطائرة أو بالقطار..

ثم تذكرت أن الذى كان معى فى السيارة هو الصديق سعد مـرتضى سفير مصر فى إسرائيل.. وأن السيارة التـى كانـت وراءنـا ببضـعة كيلو مترات هى سيارة سفير إسرائيل فى مصر موشه سـاسون وأننـا ـ بعد الحادث ـ كنا نضحك لما سوف يحدث للسـفير الاسرائيلـى هـو الآخر.. ولكن شيئا ما لم يصبه فقد سار على مهل. وتوقف فى الـطريق عدة مرات..

وعرفت من الصديق سعد مرتضى أنـه كان المفـروض أن نـركب الطائرة.. وأننى أنا الذى أقنعته بأن يركب معى، لنتحدث فى الـطريق. وأنه هو الذى كان قد قرر العودة فى طائرة حربية إلى القاهرة. وعلـى الرغم من أننا كنا وحدنا فى السيارة فلم أركب إلى جواره وإنما فضـلت الركوب إلى جوار السائق.. وبدلا من أن نعود بالطريق الزراعى، قـررت أن تكون العودة بالطريق الصحراوى..

وقد فسر السائق ذلك بأننى أريد أن نعود أسرع..

أى أننى الذى اخترت الطريق والوسيلة إلى وقوع هـذه الحـادثة.. كأن فى داخلى قوة عميقة تدفعنى إلى أن أصـل فى الـوقت المحـدد والمكان المحدد..

وقد استراح د. سابوم إلى هذا التفسير..

ولكنى لا أجده واضحا تماما ولا مقنعا فأنا لم أشعر لحظة واحـدة بأن شيئا غريبا سوف يقع..

ولكنه يؤكد لى أنه ليس من الضرورى أن يكون واضحا ولكنه عميق..

ثم ينتهى د. سابوم إلى معنى أعرفه وهو أن الاحساس بالموت يكون عند الانسان واضحا فى بعض اللحظات، ولكنه عند الحيوانات أعمق وأقوى، فالقطط والكلاب تشعر بالأحداث قبل وقوعها..

فهناك القطة التى تقفز إلى جوار التليفون وتظل تموء وبصورة مخيفة. وفجأة يدق التليفون معلنا وفاة أحد من الأقارب..

أو الكلب الذى يعوى وكأنه ذئب. أو كأنه يبكى. وينزعج الناس لذلك. وفجأة يجىء من يقول إن فلانا قد مات أو إن سيارة فلان قد اصطدمت بسيارة أخرى واحترقت.

وعشرات الأمثلة عن الطيور التى تشعر بالزلازل والبراكين قبل وقوعها.

ولكن الانسان فى حالة الانفعال العنيف، أو الصفاء الشديد، يكون قادرا على الاحساس بما سوف يقع له أو لغيره..

أذكر حادثة تؤيد وجهة نظر د. سابوم فى سنة ١٩٥٠ كان من المقرر أن أسافر إلى بريطانيا. ولكن فجأة قررت أن أزور والدتى. لأطمئن على صحتها.. وفى التليفون قالت خالتى إنها أحسن حالا مما كانت عليه بالأمس..

ولكنى تشككت. فأنا أعرف أن أمى تتظاهر بالصحة والعافية حتى لا تشغلنى. وحتى لا أؤجل سفرى. وقالت أمى: إنها سوف تزور إحدى قريباتها. فلا داعى لحضورى الآن..

ووجدت ذلك غريبا. فأمى مستحيل أن تخرج أو تنشغل بأى شىء إذا

كنت سأزورها.. فلابد أنها مريضة جدا وأنها تتظاهر بغير ذلك.. وودعتها فى التليفون، وتأكدت هى أننى لن أزورها قبل السفر. وذهبت. وكانت مفاجأة، لقد كانت تشكو من نزيف شديد وفى حاجة إلى طبيب. وقررت أن أؤجل سفرى نهائيا. وأتيت بالطبيب. وقررت أن أبيت إلى جوارها..

ونامت أمى واستراحت. وصحت فوجدتنى جالسا أقرأ وقالت: والله يا ابنى خير.. اللهم اجعله خيرا.

فقلت أداعبها: أعرف.. لقد رأيت حلما وفى هذا الحلم أن الطائرة التى كنت سأسافر بها قد احترقت والحمد لله على سلامتى!

ولم تكن لدى والدتى قوة تجعلها تندهش أو تنزعج.. وإنما أخفت وجهها وهى تقول: لابد أنك كنت تسمعنى وأنا أصرخ فى الحلم.. اللهم لك الحمد. اللهم لك الحمد يارب..

وكانت عندنا سلحفاة صغيرة. فجاءت الخادمة تقول إنها وجدتها قد دخلت فى أحد الأحذية وماتت. وانزعجت لهذا النبأ.. ثم دق جرس التليفون ليقول لى الطبيب: الحمد لله على سلامتك..

فقلت له: على سلامة أمى.

ـ بل سلامتك انت!

فقد احترقت الطائرة التى كنت سأسافر بها إلى لندن.. واحترقت بها ممثلة السينما المصرية كاميليا..

وتشاء الصدفة أن أذهب فى اليوم التالى إلى مكان الحادث لأكتب لجريدة «الأهرام» التى كنت بها، عن قصة الطائرة والفقيدة الشهيرة..

مرة أخرى كان من المفروض أن أسافر على طائرة باكستانية لافتتاح خط جديد، وكان الكاتب الكبير المرحوم على أمين يتعجل سفرى قائلا: إننى شخصيا لا أستطيع.. فسافر أنت بدلا منى..

وذهبت لزيارة أمى قبل السفر ففاجأتنى: إننى مقبوضة النفس لهذه الرحلة.. لا تسافر يا ولدى!

ولم أسافر. واحترقت الطائرة قبل هبوطها بدقائق فى أول رحلة لها!

مرة ثالثة ذهبت أشترى دواء من الصيدلية لأمى. تعبت فى البحث عنه فى كل الصيدليات فقد كان دواء جديدا. وكنت وقتها طالبا فى الجامعة.. ووقفت على سلم الترام. ولاحظت أننى من شدة التعب كدت أنام واقفا وتركت السلم لكى أستند بظهرى إلى الترام من الداخل لعلى أغفو بضع دقائق. ولم أكد أترك مكانى على السلم حتى جاءت عربة جيش وحطمت السلم وثلاثة من الواقفين عليه ـ ماتوا.

وقبل أن أنزل من الترام بلحظات وجدت صديقا صيدليا واقفا واتجهت إليه قلت: أريد منك خدمة..

وأعطيته روشتة الدواء.

وسألنى: ما الذى جعلك تترك مكانك ونحن سوف نهبط بعد لحظات.

فقلت ضاحكا: فضلت أن أموت فى الدفء على أن أموت فى البرد؟!

* * *

٩

وفى يوم نشرت الصحف أنهم أخرجوا من «صناديق النزور» بمسجد السيد البدوى مئات الألوف من الجنيهات. بينما شاعرنا حافظ إبراهيم لا يلمس فى جيبه مليما واحدا فقال غاضبا حزينا على حاله وعلى خرافات المسلمين:

من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أرجائها الصلوات
أحياؤها لا يرزقون بدرهم وبألف ألف يرزق الأموات!

١٠

وفى مدينة بورتو فينو على شاطىء الريفييرا الايـطالية زرت حـديقة صغيرة جميلة على بابها الخارجى تمثال لكلب أبيض.. وقـد تنـاثرت لافتات، صغيرة من كل لون.. وعليها أسماء مثل لولو.. بـوسى.. رينـو.. ريكس.. رول.. بلاك.. لاكى.. وكلها أسماء كلاب ثم وجدت هذه الـلافتة الذهبية المضاءة:

هنا يرقد أصدق وأخلص وأوفى وأحب مخلوقات الله!.

والرئيس محمد نجيب فى حديقة بيته مقبرة الكلاب ووسـط المقبـرة توجد هذه اللوحة: هنا يرقد أعز أصدقائى.

١١

وقد أوصى الأستاذ عباس العقاد أن تنقش على قبره هــذه الأبيــات وهى من نظمه :

إذا شيعونى يوم أقضى منيتــى	وقالوا : أراح الله ذاك المعــذبا
فلا تحملونى صامتين إلى الثرى	فإنى أخاف اللحــد أن يتهيبــا
وغنــوا، فــألموت كأس شــهية	ومازال يحلو أن يغنــى ويشربــا
وما المهد إلا اللحد، لحد بنى الورى	فلا تحزنوا فيه الــوليد المغيبــا

الفهـــــرس

رقم الإيداع		١٥٢٢ / ١٩٨٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٧٠٨-X	ISBM

٤٥١ / ٨٣ / ٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

وهذه رحلة فى أعماق الكاتب الكبير أنيس منصور.. فهو فى حالة « ارتحال » بين الأفكار والعلاقات والناس والتاريخ.. وأمتع رحلاته تلك التى فى النفس الإنسانية.. هذه الرحلة فى أعماقه هو.. إنه يقدم لك « كيمياء » الإبداع.. كيف يكتب ولماذا ومتى ؟ إنه يقول لك : إن كل فكرة هى مشروع فكرة.. مشروع قضية. فإذا كتبها فقد أحاط بها إلا قليلا، ولذلك يعاود عرضها ولدوران حولها والنفاذ إلى داخلها مرة بعد مرة..

هذا الكتاب مشروع لعدة كتب. ولكنه اكتفى بأن سجلها بحرارتها وألوانها؛ وهى تبدو مكتملة.. ولكن من يدرى ربما عاد إليها بعد ذلك فى كتب أخرى.

إن كاتبنا الكبير أنيس منصور قد حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ وهو أول كاتب عربى يفوز بجائزة « التأليف والإبداع » من البرلمان الهندى سنة ١٩٨٣.

أنت مع الكاتب الكبير أنيس منصور ستجد العلم والفن والمتعة.